التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة ابراهيم
عليه السلام

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى

الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

﴿ ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه.

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة إبراهيم - عليه السلام - ، توخيت فيه أن يكون تفسيرا تحليليا ، خاليا من الآراء السقيمة ، والأقوال الضعيفة .

والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة فى ٢٨ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ ٢٤/١١/١٩٨١ م

المؤلف

محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ

١ ــ سورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ هى السورة الرابعة عشرة فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول ، فقد كان بعد سورة نوح ـ عليه السلام ـ ، وقد ذكر السيوطى قبلها سبعين سورة من السور المكية(١) .

٢ ــ وعدد آياتها ثنتان وخمسون آية فى المصحف الكوفى ، وإحدى وخمسون فى البصرى ، وأربع وخمسون فى المدنى ، وخمس وخمسون فى الشامى .

٣ ــ وسميت بهذا الاسم ، لاشتمالها على الدعوات الطيبات التى تضرع بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى ربه ، ولا يعرف لها اسم آخر سوى هذا الاسم .

٤ ــ وجمهور العلماء على أنها مكية ، وليس فيها آية أو آيات غير مكية .

وقال الآلوسى : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة . والظاهر أنهما أرادا أنها كلها كذلك ، وهو الذى عليه الجمهور .

وأخرج النحاس فى ناسخه عن الحبر أنها مكية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بالمدينة وهما قوله ـ تعالى ـ : ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ، فإنهما نزلتا فى قتلى بدر من المشركين . . . »(٢)

وسنرى عند تفسيرنا لهاتين الآيتين ، أنه لم يقم دليل يعتمد عليه على أنهما مدنيتان ، وأن السورة كلها مكية كما قال جمهور العلماء .

٥ ــ هذا ، وبمطالعتنا لهذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل نراها فى مطلعها

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ . تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦١ طبعة منير الدمشقى .

تحدثنا عن وظيفة القرآن الكريم ، وعن جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن سوء عاقبة الكافرين ، وعن الحكمة فى إرسال كل رسول بلسان قومه قال - تعالى - : الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ...

وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم .

ثم نراها بعد ذلك تحدثنا عن طرف من رسالة موسى - عليه السلام - مع قومه ، وعن أخبار بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وعن نماذج من المحاورات التى دارت بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم .

قال - تعالى - : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ...

ثم تضرب السورة الكريمة بعد ذلك مثلا لأعمال الكافرين ، وتصور أحوالهم عندما يخرجون من قبورهم يوم القيامة ، وتحكى ما يقوله الشيطان لهم فى ذلك اليوم ... فتقول :

مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد ...

وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا ...

وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم .

ثم تسوق السورة مثلا آخر لكلمتى الإيمان والكفر فتقول : ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ...

ثم تحكى ألوانا متعددة من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلمه وقدرته ونعمه على عباده فتقول :

« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ..... »

ثم تسوق بعد ذلك تلك الدعوات الصالحات الجامعات لأنواع الخير ، والتى تضرع بها إبراهيم إلى ربه فتقول :

« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ....

رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » .

ثم يختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بآيات فيها ما فيها من أنواع العذاب الذى أعده للظالمين ، وفيها ما فيها من ألوان التحذير من السير فى طريق الكافرين والجاحدين فيقول :

ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ....

هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولوا الألباب » .

٦ — ومن هذا العرض الإجمالى للسورة الكريمة ، نراها قد اهتمت بأمور من أبرزها ما يلى :

(ا) تذكير الناس بنعم خالقهم عليهم ، وتحريضهم على شكر هذه النعم ، وتحذيرهم من جحودها وكفرها ...

ومن الآيات التى وردت فى هذه السورة فى هذا المعنى قوله - تعالى - : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

وقوله ـ تعالى ـ : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار » .

وقوله ـ تعالى ـ : « وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » .

(ب) تسلية الرسول — صلى الله عليه وسلم — عما لقيه من مشركى قريش ، تارة عن طريق مالقيه الأنبياء السابقون من أقوامهم ، وتارة عن طريق بيان أن العاقبة للمتقين .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب .... »

وقوله — تعالى — : « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم .... »

(ج) اشتمال السورة الكريمة على أساليب متعددة للترغيب فى الإيمان ، وللتحذير من الكفر ، تارة عن طريق ضرب الأمثال ، وتارة عن طريق بيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ، وتارة عن طريق حكاية ماسيقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة ، وماسيقوله الضعفاء للذين استكبروا ، وماسيقوله الظالمون يوم يرون العذاب ...

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » .

وقوله ـ تعالى ـ : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام » .

وقوله ـ تعالى ـ : « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ... »

هذه بعض الموضوعات التى اهتمت السورة بإبرازها وبتركيز الحديث عنها ، وهناك موضوعات أخرى عنيت السورة بتفصيل الحديث عنها ، ويراها المتدبر لآياتها ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

(التفســـير)

قال الله تعالى : « الر * كتابٌ أنزلناه إليكَ لتُخرِجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ بإذنِ ربهم إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ (١) اللهُ الذى له ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ ، وويلٌ للكافرينَ من عذابٍ شديدٍ (٢) الذينَ يستحبُّونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرةِ ويصدُّونَ عن سبيلِ اللهِ ويبغونها عِوَجًا ، أولئكَ فى ضلالٍ بعيدٍ (٣) وما أَرْسَلنا من رسُولٍ إلا بلسانِ قومِهِ ليبيِّنَ لهُم فيُضِلُّ اللهُ مَن يشاء وَيَهْدِى مَنْ يَشَاء ، وهو العزيزُ الحكيمُ (٤) » .

سورة إبراهيم — عليه السلام — من السور القرآنية التى افتتحت بحرف من الحروف المقطعة وهو قوله - تعالى - « ألر » .

وقد سبق أن ذكرنا آراء العلماء فى هذه الحروف عند تفسيرنا لسور : آل عمران والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد .

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعاندين والمعارضين فى أن القرآن من عند الله ، ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، فإن لم تستطيعوا فهاتوا عشر سور من مثله ، فإن عجزتم فهاتوا سورة واحدة من مثله .

قال — تعالى — : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين »[١] .

وقوله « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » تنويه بشأن القرآن الكريم ، وبيان للغرض السامى الذى أنزله الله ـ تعالى ـ من أجله .

والظلمات : جمع ظلمة ، والمراد بها : الكفر والضلال ، والمراد بالنور : الإيمان والهداية .

والباء فى « بإذن ربهم » للسببية ، والجار والمجرور متعلق بقوله «لتخرج» .

والصراط : الجادة والطريق ، من سرط الشىء إذا ابتلعه ، وسمى الطريق بذلك ، لأنه يبتلع المارين فيه ، وأبدلت سينه صادا على لغة قريش .

والمعنى : هذا كتاب جليل الشأن ، عظيم القدر ، أنزلناه إليك يا محمد ، لكى تخرج الناس من ظلمات الكفر والجهالة والضلال ، إلى نور الإيمان والعلم والهداية ، وهذا الإخراج إنما هو بإذن ربهم ومشيئته وإرادته وأمره .

وقوله « إلى صراط العزيز الحميد » بدل من قوله « إلى النور » .

أى : لتخرج الناس من ظلمات الكفر والضلال ، إلى طريق الله « العزيز » أى : الذى يغلب ولا يغلب « الحميد » أى : المحمود بكل لسان .

وأسند ـ سبحانه ـ الإخراج إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ باعتباره المبلغ لهذا الكتاب المشتمل على الهداية التى تنقل الناس من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجهالة إلى الهداية وشبه الكفر بالظلمات ـ كما يقول الإمام الرازى ـ ؛ لأنه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية ، وشبه الإيمان بالنور ، لأنه نهاية ما ينجلى به طريق هدايته[٢] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ .   (٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ٧٢

وفى جمع « الظلمات » وإفراد « النور » إشارة إلى أن الكفر طرق كثيرة، وأما الإيمان فطريق واحد .

وقوله ـ سبحانه ـ « بإذن ربهم » احتراس لبيان أن نقل الناس من حال إلى حال إنما هو بإرادة الله ـ تعالى ـ ومشيئته ، وأن الرسول ماهو إلا مبلغ فقط ، أما الهداية فمن الله وحده .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر قدرته فقال : « الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ... »

أى : الله ـ تعالى ـ وحده هو الذى له مافى السموات ومافى الأرض ملكا وملكا وخلقا لا يشاركه فى ذلك مشارك ، ولا ينازعه منازع .

ولفظ الجلالة قرأه الجمهور بالجر على أنه بدل أو عطف بيان من العزيز الحميد .

وقرأه نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : هو الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض .

وجملة « وويل للكافرين من عذاب شديد » تهديد ووعيد لمن كفر بالحق وأعرض عنه .

ولفظ « ويل » مصدر لا يعرف له فعل من لفظه مثل « ويح » وجاء مرفوعا للدلالة على الثبات والدوام ، ومعناه : الهلاك أو الفضيحة أو الحسرة ، أى ، الله ـ تعالى ـ هو الذى له مافى السموات وما فى الأرض ، وويل للكافرين بما أنزلناه إليك ـ أيها الرسول الكريم ـ من عذاب شديد سينزل بهم، فيجعلهم يستغيثون دون أن يجدوا من يغيثهم .

ثم وصف ـ سبحانه ـ هؤلاء الكافرين بجملة من الصفات الذميمة ، التى أردتهم وأهلكتهم فقال ـ تعالى ـ : « الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا ... »

ويستحبون : بمعنى يحبون ، فالسين والتاء للتأكيد ، أى : يختارون ويؤثرون ولذا عداه بعلى .

أى : يختارون شهوات الحياة الدنيا ، ويؤثرون لذائذها ومتعها على الدار الآخرة وما فيها من نعيم وخيرات . . .

و « ويصدون » من الصد ، وهو صرف الغير عن الشىء ومنعه منه . يقال : صد فلان فلانا عن فعل الشىء ، إذا منعه من فعله .

وسبيل الله : طريقه الموصلة إليه وهى ملة الإسلام .

ويبغون من البغاء ـ بضم الباء ـ بمعنى الطلب . يقال : بغيت لفلان كذا ، إذا طلبته له ، وبغيت الشىء أبغيه بغاء وبغى وبغية إذا طلبته .

والعوج ـ بكسر العين وفتحها ـ مصدر عوج ـ كتعب . إلا أن بعضهم يرى أن مكسور العين يكون فيما ليس بمرئى كالآراء والأقوال والعقائد ، وأن مفتوحها يكون فى المرئيات كالأجساد والمحسوسات .

أى : أن هؤلاء الكافرين يؤثرون شهوات الدنيا على الآخرة ونعيمها ، ولا يكتفون بذلك بل يضعون العراقيل فى طريق دعوة الحق حتى يبتعد الناس عنها ، ويطلبون لها العوج والميل تبعا لزيغ نفوسهم ، مع أنها أقوم طريق وأعدل سبيل . والضمير المنصوب فى قوله « يبغونها » يعود إلى سبيل الله . أى يبغون لها العوج ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير ، كما فى قوله « وإذا كالوهم . . . » أى : كالوا لهم .

وقوله « عوجا » مفعول به ليبغون .

وبعضهم جعل الضمير المنصوب فى « يبغونها » وهو الهاء هو المفعول ، وجعل « عوجا » حال من سبيل الله أى : ويريدونها أن تكون فى حال اعوجاج واضطراب . وقوله : « أولئك فى ضلال بعيد » بيان للحكم العادل الذى أصدره ـ سبحانه ـ عليهم .

أى : أولئك الموصوفون بما ذكر فى ضلال بعيد عن الحق .

والإشارة بأولئك الدالة على البعد ، للتنبيه على أنهم أحرياء بما وصفوا به بسبب تلبسهم بأقبح الخصال ، وأبشع الرذائل .

وعبر بفى الظرفية للدلالة على تمكن الضلال منهم ، وأنه محيط بهم كما يحيط الظارف بالمظروف .

قال الآلوسى : وفى الآية من المبالغة فى ضلالهم مالا يخفى ، حيث أسند فيها إلى المصدر ماهو لصاحبه مجازا كجد جده ...

ويجوز أن يقال : إنه أسند فيها ما للشخص إلى سبب اتصافه بما وصف به ، بناء على أن البعد فى الحقيقة صفة له باعتبار بعد مكانه عن مقصده ، وسبب بعده ضلاله ، لأنه لو لم يضل لم يبعد عنه ، فيكون كقولك : قتـــل فلانا عصيانه ، والإسناد مجازى وفيه المبالغة المذكورة أيضا »[1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ منة أخرى من مننه على عباده فقال : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ... »

قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أنه ـ تعالى ـ لما ذكر فى أول السورة « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ... » كان هذا إنعاما على الرسول ، من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم ، وإنعاما على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر ...

ثم ذكر فى هذه الآية ما يجرى مجرى تكميل النعمة والإحسان فى الوجهين:

أما بالنسبة إلى الرسول ، فلأن بعثته كانت إلى الناس عامة ...

وأما بالنسبة لعامة الخلق ، فلأنه ـــ سبحانه ـــ مابعث رسولا إلى قوم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٥

إلا بلسانهم . . . »[١] والباء فى قوله « بلسان » للملابسة ، والمراد باللسان : اللغة التى يتخاطب بها الرسول مع قومه .

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك ـ أيها الرسول الكريم ـ رسولا من الرسل إلى قوم من الأقوام ، إلا وكانت لغته كلغتهم ، لكى يتيسر لهم أن يفهموا عندما يريد أن يبلغهم إياه من الأوامر والنواهى . . .

قال ابن كثير : هذا من لطفه — تعالى — بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم مايريدون ، وما أرسلوا به إليهم ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، عن عمر بن ذر قال : قال مجاهد : عن أبى ذر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لم يبعث الله — عز وجل — نبيا إلا بلغة قومه »[٢] .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم يبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعا ، وهم على ألسنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة ، فلغيرهم الحجة . وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة ـ أيضا ـ . قلت : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل ، فبقى أن ينزل بلسان واحد . فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول — صلى الله عليه وسلم — لأنهم أقرب إليه .

فإذا فهموا عنـــه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم ، مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة ، والأجيال المتفاوتة على كتاب

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ٧٩

(٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص ١٩٧

واحد ، واجتهادهم فى تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والاختلاف ... »[1] وقال الشوكانى : ما ملخصه ، وقد قيل فى هذه الآية إشكال ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم — أرسل إلى الناس جميعا ، ولغاتهم متباينة ...

وأجيب : بأنه — صلى الله عليه وسلم — وإن كان مرسلا إلى الثقلين ، لكن لما كان قومه العرب ، وكانوا أخص به وأقرب إليه ، كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم ، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم .

ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم ، وبينه الرسول لكل قوم بلسانهم ، لكان ذلك مظنة الاختلاف ، وفتحا لباب التنازع ، لأن كل أمه قد تدعى من المعانى فى لسانها مالا يعرفه غيرها ،

وربما كان ذلك - أيضا - مفضيا إلى التحريف والتصحيف ، بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون »[2] .

وجملة « فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء » مستأنفة .

أى : فيضل الله من يشاء إضلاله ، أى يخلق فيه الضلال لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه ، ويهدى من يشاء هدايته ، لاراد لمشيئته ، ولامعقب لحكمه .

« وهو » سبحانه « العزيز » الذى لايغلبه غالب « الحكيم » فى كل أفعاله وتصرفاته .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : وتفريع قوله « فيضل الله من يشاء .. ألخ » على مجموع جملة « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ، ولذلك جاء فعل « يضل » مرفوعا غير منصوب ، إذ ليس عطفا على

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٦٦

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ٩٤ .

فعل « ليبين » ، لأن الإضلال لا يكون معلولا للتبيين ولكنه مفرع على الإرسال المعلل بالتبيين .

والمعنى : أن الارسال بلسان قومه لعلة التبيين . وقد يحصل أثر التبيين بمعونة الاهتداء ، وقد لا يحصل أثره بسبب ضلال المبين لهم »[1] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت وظيفة القرآن الكريم ، ووظيفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما توعدت الكافرين بسوء المصير إذا ما استمروا فى كفرهم وغيهم ، كما وضحت بعض مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ولطفه بعباده ، وفضله عليهم .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ، أن رسالة موسى ـ عليه السلام ـ كانت أيضا ـ لاخراج قومه من الظلمات إلى النور ، ولتذكيرهم بنعم خالقهم عليهم ، وبغناه عنهم ، فقال تعالى :

« ولقد أرسَلْنا موسى بآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قومَك من الظلماتِ إلى النورِ ، وذَكِّرهُمْ بأيامِ اللهِ ، إنّ فى ذلكَ لآياتٍ لكلّ صبارٍ شكورٍ (٥) وإذ قالَ مُوسَى لِقَومِه اذكُروا نعمةَ اللهِ عليكُم ، إذْ أَنْجاكُم من آلِ فِرْعَونَ يسُومُونكُم سوءَ العذابِ ، ويذبِّحونَ أبناءكُم ، ويستحيونَ نساءكُم ، وفى ذلكُم بلاءٌ مِنْ ربِّكُم عظيمٌ (٦) وإذْ تأذّن ربكُم لئن شكرتُم لأزِيدَنكُم ، ولئنْ كفرتُم إنَّ عذابِى لشديدٌ (٧) وقالَ مُوسَى إن تكفُروا أنتُم ومن فى الأرضِ جميعاً ، فإنَّ اللهَ لغنىٌ حميدٌ (٨) » .

قال الامام الرازى : اعلم أنه ـ تعالى ـ لما بين أنه أرسل محمدا ـ صلى الله

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٨٨ للشيخ الفاضل ابن عاشور .
(٢ ـ سورة إبراهيم)

عليه وسلم إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الارسال وفى تلك البعثة ، اتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى أقوامهم ، وكيفية معاملة أقوامهم معهم . تصبيرا له صلى الله عليه وسلم على أذى قومه وبدأ ـ سبحانه ـ بقصة موسى فقال : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور .... »(١) .

وموسى ـ عليه السلام ـ هو ابن عمران ، بن يصهر ، ابن ماهيث . . . وينتهى نسبه إلى لاوى بن يعقوب عليه السلام .

وكانت ولادة موسى ـ عليه السلام ـ فى حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد

والمراد بالآيات فى قوله . بآياتنا » الآيات التسع التى أيده الله تعالى بها قال تعالى « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات . . »(٢) .

وهى : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والجدب ـ أى فى بواديهم ، والنقص من الثمرات ـ أى فى مزارعهم .

قال ـ تعالى ـ « فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين : ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين »(٣) .

وقال ـ تعالى ـ « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات »(٤) .

وقال ـ تعالى ـ « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين »(٥) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٨٣ .
(٢) سورة الاسراء الآية ١٠١
(٣) سورة الأعراف الآيتان ١٠٧ و ١٠٨
(٤) سورة الأعراف الآيه ١٣٠
(٥) سورة الأعراف الآيه ١٣٣

ومنهم من يرى أنه يصح أن يراد بالآيات هنا آيات التوراة التى أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا » أى : ملتبسا بها . وهى كما أخرج ابن جرير وغيره ، عن مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير ، الآيات التسع التى أجراها الله على يده - عليه السلام - . وقيل : يجوز أن يراد بها آيات التوراة(١) .

ويبدو لنا أنه لا مانع من حمل الآيات هنا على مايشمل الآيات التسع ، وآيات التوراة ، فالكل كان لتأييد موسى - عليه السلام - فى دعوته .

و « أن » فى قوله « أن أخرج قومك » تفسيرية بمعنى أى، لأن فى الارسال معنى القول دون حروفه .

والمراد بقومه : من أرسل لهدايتهم وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الايمان ، وهم : بنو إسرائيل وفرعون وأتباعه .

وقيل : المراد بقومه : بنو إسرائيل خاصة . ولا نرى وجها لهـــذا التخصيص ، لأن رسالة موسى - عليه السلام - كانت لهم ولفرعون وقومه.

والمعنى : وكما أرسلناك يا محمد لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أرسلنا من قبلك أخاك موسى إلى قومه لكى يخرجهم - أيضا - من ظلمات الكفر إلى نور الايمان . فالغاية التى من أجلها أرسلت - أيها الرسول الكريم هى الغاية التى من أجلها أرسل كل نبى قبلك ، وهى دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - . وخص - سبحانه - موسى بالذكر من بين سائر الرسل، لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة الاسلامية .

وأكد - سبحانه - الاخبار عن إرسال موسى بلام القسم وحرف التحقيق

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٦٨ .

قد ، لتنزيل المنكرين لرسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - منزلة من ينكر رسالة موسى - عليه السلام - وقوله - تعالى - « وذكرهم بأيام الله » معطوف على قوله « أن أخرج قومك » .

والتذكير : إزالة نسيان الشيء ، وعدى بالباء لتضمينه معنى الانذار والوعظ : أى ذكرهم تذكير عظة بأيام الله .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بأيام الله : نعمه وآلاؤه .

قال إبن كثير : قوله « وذكرهم بأيام الله » أى : بأياديه ونعمه عليهم ، فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى .. (١) » .

ومنهم من يرى أن المراد بها : نقمه وبأساؤه .

قال صاحب الكشاف : قوله « وذكرهم بأيام الله » أى : وأنذرهم بوقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كما وقع على قوم نوح وعاد وثمود ، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها . كيوم ذى قار ، ويوم الفجار ، وهو الظاهر »(٢) .

ومنهم من يرى أن المراد بها ما يشمل أيام النعمة ، وأيام النقمة .

قال الإمام الرازى ما ملخصة : أما قوله « وذكرهم بأيام الله » فاعلم أنه - تعالى - أمر موسى فى هذا المقام بشيئين أحدهما أن يخرجهم من الظلمات إلى النور . والثانى : أن يذكرهم بأيام الله . . .

ويعبر عن الأيام بالوقائع العظيمة التى وقعت فيها . . . « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

فالمعنى : عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، فالترغيب والوعد ،

(١) تفسير الآلوسى حـ ١٣ ص ١٦٨

(٢) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٣٦٧ .

أن يذكرهم بنعم الله عليهم وعلى من قبلهم من آمن بالرسل ... والترهيب والوعيد . أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه من كذب الرسل من الأمم السالفه ...

ثم قال : واعلم أن أيام الله فى حق موسى ـ عليه السلام ـ منها ما كان أيام المحنة والبلاء ، ومن الأيام التى كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون . ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل إنزال المن والسلوى عليهم ... »[1]

وقال الآلوسى قوله « وذكرهم بأيام الله » أى : بنعمائه وبلائه كما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ واختاره الطبرى، لأنه الأنسب بالمقام والأوفق بما سيأتى من الكلام »[2] .

وما ذهب إليه الإمامان الرازى والآلوسى ، هو الذى تسكن إليه النفس، لأن الأيام كلها وإن كانت لله ، إلا أن المراد بها هنا أيام معينة ، وهى التى برزت فيها السراء أو الضراء بروزاً ظاهراً ، كانت له آثاره على الناس الذين عاشوا فى تلك الأيام.

وبنو إسرائيل ـ على سبيل المثال ـ مرت عليهم فى تاريخهم الطويل ، أيام غمروا فيها بالنعم ، وأيام أصيبوا فيها بالنقم .

فالمعنى : ذكر يا موسى قومك بنعم الله لمن آمن وشكر ، وبنقمه على من جحد وكفر ، لعل هذا التذكير يجعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتبعونك فيما تدعوهم إليه .

واسم الاشارة فى قوله : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » يعود على التذكير بأيام الله .

---

(١) تفسير الفخر الرازى حـ ١٩ ص ٨٤ .

(٢) تفسير الآلوسى حـ ١٣ ص ١٦٨ .

والصبار : الكثير الصبر على البلاء ، والصبر حبس النفس على ما يقتضيه الشرع فعلا أو تركا . يقال : صبره عن كذا يصبره إذا حبسه .

والشكور : الكثير الشكر لله - تعالى - على نعمه . والشكر : عرفان الاحسان ونشره والتحدث به . وأصله من شكرت الناقة - كفرح - إذا امتلأ ضرعها باللبن ، ومنه أشكر الضرع إذا امتلأ باللبن .

أى : إن فى ذلك التذكير بنعم الله ونقمه ، لآيات واضحات ، ودلائل بينات على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . وعلمه وحكمته ، لكل إنسان كثير الصبر على البلاء ، كثير الشكر على النعماء .

وتخصيص الآيات بالصبار والشكور لأنهما هما المنتفعان بها وبما تدل عليه من دلائل على وحدانية الله وقدرته ، لا لأنها خافية على غيرهما ، فإن الدلائل على ذلك واضحة لجميع الناس .

وجمع - سبحانه - بينهما ، للإشارة إلى أن المؤمن الصادق لا يخلو حاله عن هذين الأمرين ففى الحديث الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له »[1] .

وقدم - سبحانه - صفة الصبر على صفة الشكر ، لما أن الصبر مفتاح الفرج المقتضى للشكر ، أو لأن الصبر من قبيل الترك ، والتخلية مقدمة على التحلية .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن موسى - عليه السلام - قد امتثل أمر ربه فقال : « إذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم .... »

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٨ .

و « إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، وهو متعلق بمحذوف تقـــديره أذكر .

والمراد بقوله : « اذكروا نعمة الله عليـكم » : تنبهوا بعقولـكم وقلوبكم لتلك المنن التى امتن الله بها عليـكم ،وقوموا بحقوقها ، وأكثروا من الحديث عنها بألسنتكم ، فإن التحدث بنعم الله فيه إغراء بشكرها .

آل فرعون : حاشيته وخاصته من قومه . وفرعون : لقب لملك مصر فى ذلك الوقت ،كما يقال لملك الروم قيصر ...

ويسومونكم من السوم وهو مطلق الذهاب أو الذهاب فى ابتغاء الشيء ، يقال : سامت الإبل فهى سائمة . أى : ذهبت فى المرعى وسام السلعة : إذا طلبها وابتغاها .

وسامه خسفا إذا أذله واحتقره وكلفه فوق طاقته .

و« سوء العذاب » أشده . والسوء ـ بالضم ـ كل مايدخل الحزن والغم على نفس الإنسان . وهو فى الأصل مصدر ، ويؤنث بالألف فيقال السوءى .

وقوله « ويستحيون نساءكم »من الاستحياء بمعنى الاستبقاء : يقال استحيا فلان فلانا أى : استبقاه : وأصله طلب له الحياة والبقاء .

والمعنى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ أو أيها المخاطب وقت أن قال موسى ـ عليه السلام ـ لقومه على سبيل الإرشاد والتوجيه إلى الخير : ياقوم « أذكروا نعمة الله عليكم » أى : داوموا على شكر الله ، فقد أسبغ عليكم نعما كثيرة من أبرزها أنه ـ سبحانه ـ أنجاكم من آل فرعون الذين كانوا يصبون عليكم أشد العذاب وأفظعه ، وكانوا يذبحون أبناءكم الصغار ، ويستبقون نساءكم ...

وجعل ـ سبحانه ـ النجاة هنا من آل فرعون ولم يجعل منه ، مع أنه الآمر بتعذيب بنى إسرائيل للتنبيه على أن خاشيته وبطانته كانت عونا له فى إذاقتهم سوء العذاب .

وجملت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لبنى إسرائيل ، لأن هذا الإبقاء عليهن كان المقصود منه الاعتداء عليهن ، واستعمالهن فى الخدمة بالاسترقاق ، فبقاؤهن بعد فقد الذكور بقاء ذليل ، وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة .

قال الآلوسى : قوله : « ويستحيون نساءكم » أى : ويبقونهن فى الحياة مع الذل ، ولذلك عد من جملة البلاء ، أو لأن أبقاءهن دون البنين رزية فى ذاته كما قيل :

ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنينا[1]

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء هنا : الأطفال الصغار ، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك ، ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث إن فرعون وآله ، كانوا يستعملونهم فى الأعمال الشاقة والحقيرة ، لأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال ، لما قامت أم موسى بإلقائه فى البحر وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .

وقال - سبحانه - هنا « يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم » لأن المقصود هنا تعداد المحن التى حلت ببنى إسرائيل ، فكان المراد بجملة « يسومونكم سوء العذاب » نوعا منه ، وكان المراد بجملة « ويذبحون أبناءكم » نوعا آخر منه ، لذا وجب العطف ، لأن الجملة الثانية ليست مفسرة للأولى ، وإنما هى تمثل نوعا آخر من العذاب الذى حل ببنى إسرائيل .

بخلاف قوله - تعالى - فى سورة البقرة « يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم » بدون واو العطف ، لأن الجملة الثانية بيان وتفسير للجملة الأولى . فيكون المراد من سوء العذاب فى سورة البقرة تذبيح الأبناء واستحياء النساء ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٧٠ .

واسم الإشارة فى قوله « وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » يعود إلى المذكور من النعم والنقم والبلاء : الامتحان والاختبار ، ويكون فى الخير والشر . قال - تعالى - « ونبلوكم بالخير والشر فتنة » .

أى : وفى ذلكم العذاب وفى النجاة منه إمتحان عظيم لكم من ربكم بالسراء لتشكروا وبالضراء لتصبروا ، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الشقاء والهوان .

ثم حكى - سبحانه - أن موسى - عليه السلام - قد أرشد قومه إلى سنة من سنن الله التى لا تتخلف فقال : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد »

وقوله « تأذن » بمعنى آذن أى أعلم ، يقال : آذن الأمر وبالأمر أى : أعلمه . إلا أن صيغة التفعل تفيد المبالغة فى الإعلام ، فيكون معنى « تأذن » : أعلم إعلاما واضحا بليغا لا التباس معه ولا شبهة .

واللام فى قوله « لئن شكرتم » موطئة للقسم . وحقيقة الشكر : الاعتراف بنعم الله - تعالى - واستعمالها فى مواضعها التى أرشدت الشريعة إليها .

وقوله « لأزيدنكم » سادمسد جوابى القسم والشرط .

والمراد بالكفر فى قوله « ولئن كفرتم » كفر النعمة وجحودها ، وعدم نسبتها إلى واهبها الحقيقى وهو الله - تعالى - كما قال قارون « إنما أوتيته على علم عندى » ، وعدم استعمالها فيما خلقت له ، إلى غير ذلك من وجوه الانحراف بها عن الحق .

وجملة « إن عذابى لشديد » دليل على الجواب المحذوف لقوله « ولئن كفرتم » إذ التقدير ولئن كفرتم لأعذبنكم ، إن عذابى لشديد .

قال الجمل : « إنما حذف هنا وصرح به فى جانب الوعد ، لأن عادة أكرم

الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد»[1].

والمعنى: واذكر أيها المخاطب وقت أن قال موسى لقومه: ياقوم إن ربكم قد أعلمكم إعلاما واضحا بليغا مؤكدا بأنكم إن شكرتموه على نعمه، زادكم من عطائه وخيره ومننه، وإن جحدتم نعمه وغمطتموها واستعملتموها فى غير مايرضيه، محقها من بين أيديكم، فإنه - سبحانه - عذابه شديد، وعقابه أليم.

هذا: وقد ساق الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث الموجبة للشكر، والمحذرة من الجحود فقال:

«وقد جاء فى الحديث الشريف: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها.. أو حسن بها أى: رماها. قال: وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقال السائل: سبحان الله!! تمرة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال للجارية: إذهبى إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التى عندها»[2]:

ثم بين - سبحانه - أن موسى قد أخبر قومه أن ضرر كفرهم إنما يعود عليهم، لأن الله - تعالى - غنى عن العالمين فقال - تعالى -: «وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا، فإن الله لغنى حميد».

أى: وقال موسى - عليه السلام - لقومه، إن تجحدوا نعم الله أنتم ومن فى الأرض جميعا من الخلائق، فلن تضروا الله - شيئا، وإنما ضرر ذلك يعود على الجاحد لنعمه، المنحرف عن طريقه، فإن الله - تعالى - لغنى عن شكركم وشكرهم، مستحق للحمد من جميع المخلوقين طوعا وكرها.

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥١٥.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٩.

ويبدو من سياق الآية الكريمة أن موسى - عليه السلام - إنما قال لقومه ذلك، بعد أن شاهد منهم علامات الاصرار على الكفر والفساد، وترجح لديه أنهم قوم لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب، ولمس منهم أنهم يمنون عليه أو على الله - تعالى - بطاعتهم فأراد بهذا القول أن يزجرهم عن الإدلال بإيمانهم، والمن بطاعتهم.

فالغرض الذي سبقت له الآية إنما هو بيان أن منفعة الطاعة والشكر والإيمان إنما تعود على الطائعين الشاكرين المؤمنين، وأن مضرة الجحود والكفران إنما تعود على الجاحدين الكافرين.

أما الله - تعالى - فلن تنفعه طاعة المطيع، ولن تضره معصية العاصي.

ففي الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر الغفاري، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئا.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئا.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»[1].

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد زخرت بالتوجيهات القرآنية الحكيمة، التي ساقها الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - وهو يعظ قومه، ويذكرهم بأيام الله، وبسننه في خلقه، وبغناه عنهم ...

---

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم

ثم حكى ـ سبحانه ـ جانبا من أحوال بعض الرسل مع أقوامهم ، ومن المحاورات التى دارت بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم فقال ـ تعالى ـ :

« أَلَمْ يأتكم نبأُ الذينَ مِنْ قبلِكُم ، قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذينَ مِنْ بَعْدِهِم لا يعلمُهم إلاّ اللهُ ، جاءتهُم رسلُهم بالبيناتِ فردُّوا أيديَهُم فى أفواهِهم وقالُوا إنّا كفَرْنَا بما أُرسلتُم به ، وإنَّا لفى شكٍّ ممَّا تدعُونَنَا إليه مريبٌ (٩) قالَتْ رسلُهم أفى اللهِ شكٌّ فاطرِ السَّموات والأرض يدعوكُم ليغفرَ لكُم من ذُنوبكُم ويؤخِّركُم إلى أَجَلٍ مسمًّى ، قالُوا إنْ أنتُم إلا بشرٌ مثلُنَا تريدُونَ أن تصدُّونَا عما كان يعبُد آباؤُنا بسُلطانٍ مبينٌ (١٠) قالَتْ لهم رسلُهم إنْ نحنُ إلا بشرٌ مثلُكُم ولكنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يشاءُ من عبادِه ، وما كانَ لنا أنْ نأتِيَكُم بسُلطانٍ إلاَّ بإذنِ اللهِ ، وعلى اللهِ فَلْيتوكّلِ المؤمِنُون (١١) وما لَنا ألاَّ نتوكَّلَ على اللهِ وقد هدَانَا سبُلَنَا ولَنَصْبِرَنَّ على ما آذَيْتُمُونَا وعَلَى اللهِ فليتوكّلِ المتوكِّلُون (١٢) » .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود . . »

يرى بعض المفسرين أنه من تتمة كلام موسى ـ عليه السلام ـ فيكون المعنى: أن موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن ذكر قومه بأيام الله ـ تعالى ـ ، وبنعمه عليهم ، وبسننه ـ سبحانه ـ فى خلقه ...

بعد كل ذلك شرع فى تذكيرهم وتخويفهم عن طريق ماحل بالمكذبين من قبلهم ، فقال لهم ـ كما حكى القرآن عنه ـ : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم . . »

ومنهم من يرى أن الآية الكريمة كلام مستأنف ، والخطاب فيه لأمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - . فيكون المعنى :

أن الله - تعالى - بعد أن بين للناس أنه قد أنزل كتابه على رسوله - صلى الله عليه وسلم - لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وبين - سبحانه - أنه له ما فى السموات وما فى الأرض ، وهدد الكافرين بالعذاب الشديد ، وحكى ما قاله موسى لقومه ...

بعد كل ذلك وجه - سبحانه - الخطاب إلى مشركى مكة وإلى كل من كان على شاكلتهم فقال : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ... »

قال الفخر الرازى ما ملخصه : يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه، والمقصود منه أنه - عليه السلام - كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم .

ويجوز أن يكون مخاطبة من الله - تعالى - على لسان موسى لقومه ، يذكرهم أمر القرون الأولى . والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين ، وهذا المقصود حاصل على التقديرين ، إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول - صلى الله عليه وسلم - »[1] .

ومع أننا نؤيد الإمام الرازى فى أن المقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين ، إلا أننا نميل مع الأكثرين إلى الرأى الثانى ، لأن قوم الرسول - صلى الله عليه وسلم - هم المقصودون قصدا أوليا بالخطاب القرآنى ، ولأن الإمام ابن كثير - رحمه الله - يرى أنه لم يرد ذكر فى التوراة لقوم عاد وثمود ، فقد قال :

قال ابن جرير : هذا من تمام قول موسى لقومه ... وفيما قاله ابن جرير نظر والظاهر أنه خبر مستانف من الله - تعالى - لهذه الأمة ، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٨٨ طبعة دار الكتب العلمية - طهران .

لقصه عليهم . فلا شك حينئذ أن تكون هاتان القصتان فى التوراة »[1]

والاستفهام فى قوله « ألم يأتكم . . . » للتقرير لأنهم قد بلغتهم أخبارهم ، فقوم نوح بلغتهم أخبارهم بسبب خبر الطوفان الذى كان مشهورا بينهم ، وقدم عاد وثمود بلغتهم أخبارهم لأنهم من العرب ، ومساكنهم فى بلادهم ، وهم يمرون على ديار قوم صالح فى أسفارهم إلى بلاد الشام للتجارة .

والمراد بالذين من بعدهم : أولئك الأقوام الذين جاءوا من بعد قوم نوح وعاد وثمود ، كقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم .

وقوله « لا يعلمهم إلا الله » أى : لا يعلم عدد الأقوام الذين جاءوا بعد قوم نوح وعاد وثمود ولا يعلم ذواتهم وأحوالهم إلا الله تعالى .

وقوله « والذين من بعدهم » مبتدأ ، وقوله « لا يعلمهم إلا الله » خبره ، والجملة إعتراض بين المفسر ـ بفتح السين ـ وهو « نبأ الذين من قبلهم » وتفسيره وهو « جاءتهم رسلهم بالبينات » .

والمعنى : لقد علمتم يا أهل مكة ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ، كما علمتم ما حل بالمكذبين من بعدهم كقوم لوط وقوم شعيب ، وكغيرهم ممن لا يعلم أحوالهم وعددهم إلا الله ـ تعالى ـ وما دام الأمر كذلك فاعتبروا واتعظوا واتبعوا هذا الرسول الكريم الذى جاء لسعادتكم ، لكى تنجوا من العذاب الأليم الذى حل بالظالمين من قبلكم .

وجملة « جاءتهم رسلهم بالبينات » مستأنفة فى جواب سؤال مقدر . كأنه قيل ما قصة هؤلاء الأقوام وما خبرهم ؟

فكان الجواب : جاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات ، وبالمعجزات الظاهرات ، الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقوله « فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به . . . »

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٠

بيان لموقف الأقوام المكذبين من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم.

والضمائر فى « ردوا » و « أيديهم » و « أفواههم » تعود على الأقوام الذين جاءتهم رسلهم بالبينات.

وهذه الجملة الكريمة ذكر المفسرون فى معناها وجوها متعددة أوصلها بعضهم إلى عشرة أقوال.

منها: أن الكفار وضعوا أناملهم فى أفواههم فعضوها غيظا وبغضا عما جاء به الرسل، وقالوا لهم بغضب وضجر: أنا كفرنا بما أرسلتم به وبما جئتمونا به من معجزات، فاغربوا عن وجوهنا. واتركونا وشأننا.

ومن المفسرين الذين رجحوا هذا الوجه الإمام ابن جرير، فقد قال: وقوله: « فردوا أيديهم فى أفواههم ... » اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك، فعضوا على أصابعهم تغيظا عليهم فى دعائهم إياهم إلى مادعوهم إليه ... روى ذلك عن ابن مسعود وغيره.

ثم قال بعد أن ساق عددا من الأقوال الأخرى: وأشبه هذه الأقوال عندى بالصواب فى تأويل هذه الآية، القول الذى ذكرناه عن عبد الله ابن مسعود. أنهم ردوا أيديهم فى أفواههم، فعضوا عليها غيظا على الرسل، كما وصف الله عز وجل به إخوانهم من المنافقين فقال: « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ »، فهذا هو الكلام المعروف، والمعنى المفهوم من رد الأيدى إلى الأفواه »(1).

ومنها: أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواههم إشارة منهم إلى أنفسهم وإلى مايصدر عنها، وقالوا للرسل على سبيل التحدى والتكذيب إنا كفرنا بما أرسلتم به، أى: لاجواب لكم عندنا سوى ماقلناه لكم بألسنتنا هذه.

---

(1) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٧.

ومن المفسرين الذين رجحوا هذا القول الإمام الآلوسى ، فقد صدر الأقوال التى ذكرها به ، فقال ماملخصه : قوله « فردوا أيديهم فى أفواههم » أى : أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم ومانطقت به « وقالوا » لهم « إنا كفرنا بما أرسلتم به » أى : على زعمكم ، وهى البينات التى أظهروها حجة رسالتهم ، ومرادهم بالكفر بها : الكفر بدلالتها على صحة رسالتهم ....

ثم قال بعد أن ساق عدد من الأقوال : والذى يطابق المقام ، وتشهد له البلاغة هو الوجه الأول ، ونص غير واحد على أنه الوجه القوى ، لأنهم حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار . حيث جمعوا فى الإنكارين: الفعل والقول ، ولذا أتى بالفاء تنبيها على أنهم لم يتمهلوا ، بل عقبوا دعوتهم بالتكذيب ... »[1]

ومنها : أن الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم ، وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتعجبا .

وقد رجح هذا الوجه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فقال وهذا التركيب لا أعهد مثله فى كلام العرب فلعله من مبتكرات القرآن : ومعنى « فردوا أيديهم فى أفواههم » .

يحتمل عدة وجوه أنهاها فى الكشاف إلى سبعة، وفى بعضها بعد ،وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى :أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل ، كراهية أن تظهر دواخل أفواههم ، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل »[2] .

ومنها : ان الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم، لم يردوا عليهم ، بل تركوهم إهمالا لشأنهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٧٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٩٦

وقد رجح الشوكانى هذا الاتجاه فقال ماملخصه : وقال أبو عبيدة - ونعم ماقال - هو ضرب مثل . أى : لم يؤمنوا ولم يجيبوا . والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قد رد يده فى فيه . وهكذا قال الأخفش . وأعترض على ذلك القتيبي فقال : لم يسمع أحد من العرب يقول : رديده فى فيه : إذا ترك ماأمر به ، وإنما المعنى عضوا على الأيدى حنقا وغيظا ...

فإن صح ماذكره أبو عبيد والأخفش فتفسير الآية به أقرب ... »[1]

وهذه الأقوال جميعا وإن كانت تتفق فى أن الآية الكريمة ،قدأخبرت بأبلغ عبارة عما قابل به الأقوام المكذبون رسلهم من سوء أدب ...

إلا أننا نميل إلى ماذهب إليه الإمام ابن جرير ، لأنه أظهر الأقوال فى معناها ، وقد استشهد له بعضهم بأشعار العرب ، ومنها قول الشاعر :

تردُّون فى فيه غشّ الحسو د . حتى يَعَضّ علىّ الأكُفا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه[2] .

وقوله - سبحانه - « وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب » معطوف على قوله « إنا كفرنا بما أرسلتم به » .

ومريب : اسم فاعل من أراب. تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذافعلت به فعلا يوجب لديه الريبة . فمعنى مريب : موقع فى الريبة أى : فى القلق والاضطراب .

أى : قال المكذبون لرسلهم إنا كفرنا بما جئتم به من المعجزات والبينات،

---

(١) راجع تفسير الشوكانى حـ ٣ ص ٩٧ ففيه مايقرب من عشرة أقوال فى معنى الآية .

(٢) تفسير القرطبي حـ ٩ ص ٣٤٦ .

وإنا لفى شك كبير موقع فى الريبه مما تدعوننا إليه من الإيمان بوحدانية الله ، وبإخلاص العبادة له ..

قال الجمل ماملخصه : فإن قيل إنهم أكدوا كفرهم بما أرسل به الرسل ثم ذكروا بعد ذلك أنهم شاكون مرتابون فى صحة قولهم فكيف ذلك؟

فالجواب : كأنهم قالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به أيها الرسل ، فإن لم نكن كذلك ، فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين فى صحة نبوتكم ..

أو يقال: المراد بقولهم «إنا كفرنا بما أرسلتم به» أى بالمعجزات والبينات، وبقولهم : «وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب» وهو الإيمان والتوحيد .

أو يقال : إنهم كانوا فرقتين إحداهما جزمت بالكفر ، والأخرى شكت. ...»(1)

ثم بين — سبحانه — مارد به الرسل على المكذبين من أقوامهم فقال : «قالت رسلهم أفى الله شك ، فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ...»

والاستفهام فى قوله «أفى الله شك» للتوبيخ والإنكار ، ومحل الانكار هو وقوع الشك فى وجود الله — تعالى — وفى وحدانيته .

وقوله «فاطر السموات والأرض» من الفطر بمعنى الخلق والإبداع من غير سبق مثال وأصله : الشق وفصل شىء عن شىء ، ومنه فطر ناب البعير أى : طلع وظهر ، واستعمل فى الايجاد والابداع والخلق لاقتضائه التركيب الذى سبيله الشق والتأليف ، أو لما فيه من الاخراج من العدم إلى الوجود .

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥١٦

والمعنى : قال الرسل لأقوامهم على سبيل الإنكار والتعجب من أقوالهم الباطلة : أفى وجود الله — تعالى — وفى وجوب إخلاص العبادة له شك ، مع أنه - سبحانه - هو « فاطر السموات والأرض » أى : خالقهما ومبدعهما ومبدع مافيهما على أحكم نظام ، وعلى غير مثال سابق . . .

وهو — سبحانه — فضلا منه وكرما « يدعوكم » إلى الإيمان بماجئنا كم به من لدنه « ليغفر لكم » بسبب هذا الإيمان « من ذنوبكم ويؤخركم » فى هذه الدنيا « إلى أجل مسمى » أى : إلى وقت معلوم عنده تنتهى بانتهائه أعماركم ، دون أن يعاجلكم خلال حياتكم بعذاب الاستئصال ، رحمة بكم ، وأملا فى هدايتكم .

فأنت ترى أن الرسل الكرام قد أنكروا على أقوامهم أن يصل بهم انطماس البصيرة إلى الدرجة التى تجعلهم ينكرون وجود الله مع أن الفطر شاهدة بوجوده ، وينكرون وحدانيته مع أنه وحده الخالق لكل شىء ، ويشركون معه فى العبادة آلهة أخرى ، مع أن هذه الآلهة لاتضر ولا تنفع .

وجملة « فاطر السموات والأرض » جىء بها كدليل على نفى الشك فى وجوده — سبحانه — وفى وجوب إخلاص العبادة له ، لأن وجودهما على هذا النسق البديع يدل دلالة قاطعة على أن لهما خالقا قادرا حكيما ، لاستحالة صدور تلك المخلوقات من غير فاعل مختار .

وجملة « يدعوكم . . . » حال من اسم الجلالة ، واللام فى قوله « ليغفر لكم من ذنوبكم » متعلقة بالدعاء .

أى : يدعوكم إلى الإيمان به لكى يغفر لكم .

قال الشوكانى ما ملخصه : و « من » فى قوله « من ذنوبكم » قال أبو عبيدة : إنها زائدة ، ووجه ذلك قوله — تعالى — فى موضع آخر « إن الله يغفر

الذنوب جميعا ، وقال سيبويه : هى للتبعيض ، ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع . وقيل التبعيض على حقيقته ولا يلزم من غفران الذنوب لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - غفران جميعها لغيرهم ....

وقيل هى للبدل أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب ... »[1] .

وقال الجمل : ويحتمل أن يضمن « يغفر » معنى يخلص ، أى : يخلص ، أى : يخلصكم من ذنوبكم ويكون مقتضاه غفران جميع الذنوب ، وهو أولى من دعوى زيادتها »[2] .

وقوله - سبحانه - « قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » حكاية لرد آخر من الردود السيئة التى قابل بها المكذبون رسلهم .

أى : قال الظالمون لرسلهم الذين جاءوا لهدايتهم ، ما أنتم إلا بشر مثلنا فى الهيئة والصورة والمأكل والمشرب ، تريدون بما جئتمونا به أن تصرفونا وتمنعونا عن عبادة الآلهة التى ورثنا عبادتها عن آبائنا ...

فإن كنتم صادقين فى دعواكم هذه « فأتونا بسلطان مبين » أى بحجة ظاهرة تدل على صدقكم ، وتتسلط هذه الحجة بقوتها على نفوسنا وتجذبها إلى اليقين ، من السلاطة وهى التمكن من القهر .

وكان هؤلاء الظالمين بقولهم هذا ، يرون أن الرسل لا يصح أن يكونوا من البشر ، وإنما يكونون من الملائكة .

وكان ما أتاهم به الرسل من حجج باهرة تدل على صدقهم ، ليس كافيا فى زعم هؤلاء المكذبين للإيمان بهم ، بل عليهم أن يأتوهم بحجج محسوسة

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى حـ ٣ ص ٩٨
(٢) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٢ ص ٥١٧

أخرى وهكذا الجحود العقلى ، والانطماس النفسى يحمل أصحابه على قلب الحقائق ، وإيثار طريق الضلالة على طريق الهداية .

وهنا يحكى القرآن أن الرسل - عليهم السلام - قد قابلوا هذا السفه من أقوالهم المنطق الحكيم ، وبالأسلوب المهذب فيقول : « قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ... »

أى : قال الرسل لمكذبيهم على سبيل الإرشاد والتنبيه : نحن نوافقكم كل الموافقة على أننا بشر مثلكم كما قلتم ، ولكن هذه المماثله بيننا وبينكم فى البشريه ، لا تمنع من أن يتفضل الله على من يشاء التفضل عليه من عباده ، بأن يمنحه النبوة أو غيرها من نعمه التى لا تحصى .

فأنت ترى أن الرسل - عليهم السلام - قد سلموا للمكذبين دعواهم المماثله فى البشريه ، فى أول الأمر ، ثم بعد ذلك بينوا لهم جهلهم وسوء تفكيرهم ، بأن أفهموهم بطريق الاستدراك ، أن المشاركة فى الجنس لا تمنع التفاضل ، فالبشر كلهم عباد الله ، ولكنه - سبحانه - يمن على بعضهم بنعم لم يعطها لسواهم .

فالمقصود بالاستدراك دفع ما توهمه المكذبون ، من كون المماثله فى البشريه تمنع اختصاص بعض البشر بالنبوة .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : « قالت لهم رسلهم » مجاراة لأول مقالتهم « إن نحن إلا بشر مثلكم » كما تقولون ، وهذا كالقول بالموجب ، لأن فيه إطماعا فى الموافقه ، ثم كروا على قولهم بالإبطال فقالوا : « ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » .

أى : إنما اختصنا الله - تعالى - بالرسالة بفضل منه وامتنان ، والبشريه غير مانعه لمشيئته - جل وعلا - . وفيه دليل على أن الرسالة عطائيه ، وأن ترجيح بعض الجائز على بعض بمشيئته - تعالى - ولا يخفى ما فى العدول

عن ولكن الله من علينا ، إلى مافى النظم الجليل منهم - عليه السلام - »[1] .

وقوله - سبحانه - « وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » حكاية لرد الرسل على قول المكذبين لهم « فأتونا بسلطان مبين » .

أى : وقال الرسل المكذبين من أقوامهم - أيضا - وما صح وما استقام لنا نحن الرسل أن نأتيكم - أيها الضالون - بحجة من الحجج ، أو بخارق من الخوارق التى تقترحونها علينا ، إلا بإذن الله وإرادته وأمره لنا بالإتيان بما اقترحتم ، فنحن عباده ولا نتصرف إلا بإذنه .

ثم أكد الرسل تمسكهم بالمضى فى دعوتهم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

والتوكل على الله معناه : الاعتماد عليه ، وتفويض الأمور إليه ، مع مباشرة الأسباب التى أمر - سبحانه - بمباشرتها .

أى : وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فليتوكل المؤمنون ، الصادقون ، دون أن يعبأوا بعنادكم ولجاجكم ، ونحن الرسل على رأس هؤلاء المؤمنين الصادقين .

فالجملة الكريمة أمر من الرسل لمن آمن من قومهم بالتوكل على الله وحده ، وقد قصدوا بهذا الأمر أنفسهم قصدا أوليا ؛ بدليل قولهم بعد ذلك - كما حكى القرآن عنهم - : « وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا » .

أى : وما عذرنا إن تركنا التوكل على الله - تعالى - ، والحال أنه - عز وجل - قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه ، فقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ، وهى طريق إخلاص العبادة له ، والاعتماد عليه وحده فى كل شئوننا .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٣ ص ١٧٧

فالجملة الكريمة تدل على اطمئنانهم إلى سلامة مواقفهم فى تفويض أمورهم إلى الله ، وإلى رعاية الله - تعالى - حيث هداهم إلى طريق النجاة والسعادة .

ثم أضافوا إلى ذلك تيئيس أعدائهم من التأثر بأذاهم ، فقالوا « ولنصبرن على ما آذيتمونا » .

أى : ووالله لنصبرن صبراً جميلا فى حاضرنا ومستقبلنا - كما صبرنا فى ماضينا - على إيذائكم لنا . والذى من مظاهره : عصيانكم لأقوالنا، ونفوركم من نصحنا ، واستهزاؤكم بنا ، ومحاربتكم لنا ...

ثم ختموا أقوالهم بتأكيد تصميمهم على الثبات فى وجه الباطل فقالوا « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » .

أى : وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فليثبت المتوكلون على توكلهم . وليفوضوا أمورهم إلى خالقهم ، فهو القاهر فوق عبـــاده ، وهو الذى لا يعجزه شىء .

وتقديم الجار والمجرور فى الجملة الكريمة وفيما يشبهها ، مؤذن بالحصر ، وبأن هؤلاء الرسل الكرام لا يرجون نصرا من غير الله - تعالى - .

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة ، قد حكت لنا بأسلوب مؤثر حكيم ، جانبا من المحاورات التى دارت بين الرسل وبين مكذبيهم ، وبينت لنا كيف دافع الرسل عن عقيدتهم، وكيف ردوا على الأقوال السيئة، والأفعال القبيحة ، التى واجههم بها المكذبون ، وكيف أعلنوا فى قوة وعزم وإصرار ثباتهم فى وجوه أعدائهم ، ومقابلتهم الأذى بالصبر الذى لا جزع معه ، مهما صنع الأعداء فى طريقهم من عقبات ، ومهما أثاروا من أباطيل وشبهات . . . .

ثم حكت السورة بعد ذلك جانبا آخر من تلك المحاورات التى دارت بين الرسل وبين أعدائهم ، وجانبا مما وعد الله به رسله - عليهم السلام ، وجانبا

من العذاب الذى أعده للظالمين فقال — تعالى — :

« وقالَ الذينَ كفرُوا لرُسُلِهم لنُخْرِجنكُم من أرضِنَا أو لتعودُنَّ فى ملَّتِنا ، فأوْحَى إليهمْ ربُّهم لنُهلِكنّ الظالمينَ (١٣) ولَنُسْكِنَنَّكُم الأرضَ مِنْ بَعدِهِم ذلكَ لِمَنْ خَافَ مقامِي وخافَ وعيدِ (١٤) واستَفْتَحُوا وخابَ كلُّ جبَّارٍ عنيدٍ (١٥) من ورائِه جَهنَّمُ ويُسْقَى من ماءٍ صديدٍ (١٦) يتجرَّعُه ولاَ يكادُ يُسيغُه ويأْتِيه الموتُ من كلِّ مكانٍ وما هُوَ بميتٍ ، ومِنْ ورائِه عذابٌ غليظٌ (١٧) » .

فقوله — سبحانه — : « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا ، أو لتعودن فى ملتنا ... » حكاية لما هدد به رءوس الكفر رسلهم ، بعد أن أفحمهم الرسل بالحجة البالغة ، وبالمنطق الحكيم .

واللام فى « لنخرجنكم » هى الموطئة للقسم . و « أو » للتخيير بين الأمرين .

أى : وقال الذين عتوا فى الكفر — على سبيل التهديد — لرسلهم ، الذين جاءوا لهدايتهم ، والله لنخرجنكم — أيها الرسل — من أرضنا ، أو لتعودن فى ديننا وملتنا .

قال الإمام الرازى : إعلم أنه — تعالى — لما حكى عن الأنبياء — عليهم السلام — ، أنهم قد اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه ، والاعتماد على حفظه وحياطته ، حكى عن الكفرة أنهم بالغوا فى السفاهة وقالوا للأنبياء « لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا » .

والمعنى : ليكونن أحد الأمرين لا محالة ، إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا .

والسبب فيه أن أهل الحق فى كل زمان يكونون قليلين . وأهل الباطل يكونون كثيرين .

والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين ، فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة »[1] :

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ « أو لتعودن فى ملتنا » يفيد بظاهره أن الرسل كانوا على ملة الكافرين ثم تركوها ، فإن العود معناه : الرجوع إلى الشيء بعد مفارقته . وهذا محال ، فإن الأنبياء معصومون ـ حتى قبل النبوة ـ عن ارتكاب الكبائر ، فضلا عن الشرك .

وقد أجيب عن ذلك بإجابات منها :

أن الخطاب وإن كان فى الظاهر مع الرسل ، إلا أن المقصود به أتباعهم المؤمنون ، الذين كانوا قبل الإيمان بالرسل على دين أقوامهم ، فكأنهم يقولون لهؤلاء الأتباع : لقد كنتم على ملتنا ثم تركتموها ، فإما أن تعودوا إليها وإما أن تخرجوا من ديارنا ، إلا أن رءوس الكفر وجهوا الخطاب إلى الرسل من باب التغليب .

ومنها : أن العود هنا بمعنى الصيرورة ، إذ كثيرا مايرد « عاد » بمعنى صار ، فيعمل عمل كان ، ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل يستدعى الانتقال من حال سابقة إلى حال جديدة مستأنفه ، فيكون المعنى : لنخرجنكم من أرضنا أو لتصيرن كفارا مثلنا .

ومنها : أن هذا القول من الكفار جار على توهمهم وظنهم ، أن الرسل كانوا قبل دعوى النبوة على ملتهم ، لسكوتهم قبل البعثه عن الإنكار عليهم ، فلهذا التوهم قالوا ما قالوا ، وهم كاذبون فيما قالوه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ٩٩

وشبيه بهذه الآيه قول قوم شعيب — عليه السلام — له «لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ...»(١)

وقول قوم لوط له «أخرجوا آل لوط من قريتكم أنهم أناس يتطهرون»(٢).

وقوله — سبحانه — : «فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ...» بشارة عظيمة من الله — تعالى — لرسله ، ووعد لهم بالنصر على أعدائهم ..

أى : فأوحى الله — تعالى — إلى الرسل — بعد أن قال لهم الكافرون ماقالوا — : أبشروا أيها الرسل «لنهلكن الظالمين» الذين هددوكم بالإخراج من الديار ، أو بالعودة إلى ملتهم ، «ولنسكننكم» — أيها الرسل — «الأرض» أى أرضهم «من بعدهم» أى : من بعد إهلاكهم واستئصال شأفتهم .

قال الآلوسى ماملخصه : «وأوحى هنا يحتمل أن يكون بمعنى فعل الإيحاء فلا مفعول له» .

وقوله «لنهلكن» على إضمار القول ، أى : قائلا لنهلكن . ويحتمل أن يكون جاريا مجرى القول لكونه ضربا منه ، وقوله «لنهلكن» مفعوله ...

وخص — سبحانه — الظالمين من الذين كفروا ، لأنه من الجائز أن يؤمن من الكفرة الذين قالوا تلك المقالة أناس معينون ، فالتوعد لإهلاك من خاص للظلم»(٣) .

وأكد — سبحانه — إهلاك الظالمين وإسكان الرسل أرضهم ، بلام القسم ونون التوكيد ... زيادة فى إدخال السرور على نفوس الرسل ، وفى تثبيت

---

(١) سورة الأعراف . الآيه ٨٨

(٢) سورة النمل . الآيه ٥٦

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٧٩

قلوبهم على الحق ، وردا على أولئك الظالمين الذين أقسموا بأن يخرجوا للرسل من ديارهم ، أو يعودوا إلى ملتهم .

قال صاحب الكشاف والمراد بالأرض فى قوله « ولنسكننكم الأرض من بعدهم» أرض الظالمين وديارهم : ونحوه: « وأورثنا القوم الذين يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » « وأورثكم أرضهم وديارهم » . .

وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - : « من آذى جاره ورثه الله داره » .

ثم قال : ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة ، كان لى خال يظلمه عظيم القرية التى أنا منها ويؤذينى فيه ، فمات ذلك العظيم وملكنى الله ضيعته ، فنظرت يوما إلى أبناء خالى يترددون فيها ، ويدخلون فى دورها ويخرجون ويأمرون وينهون ، فذكرت قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم - وحدثتهم به ، وسجدنا شكرا لله »(١) .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - « ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد» يعود إلى ما قضى الله به من إهلاك الظالمين ، وتمكين الرسل وأتباعهم من أرضهم .

أى : ذلك الذى قضيت به كائن لمن خاف قيامى عليه ، ومراقبتى له ، ومكان وقوفه بين يدى للحساب ، وخاف وعيدى بالعذاب لمن عصانى .

قال الجمل : وفى السمين : ومقامى فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مقحم وهو بعيد إذ الأسماء لا تقحم — أى ذلك لمن خافنى — الثانى : أنه مصدر مضاف للفاعل .

قال الفراء : مقامى مصدر مضاف لفاعله : أى قيامى عليه بالحفظ . الثالث . أنه اسم مكان . قال الزجاج : مكان وقوفه بين يدى للحساب»..(٢)

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٣٧١

(٢) حاشيه الجمل على الجلالين حـ ٢ ص ٥١٨

وقوله - سبحانه . « واستفتحوا » من الاستفتاح بمعنى الاستنصار ، أى : طلب النصر من الله - تعالى - على الأعداء . والسين والتاء للطلب .

ومنه قوله - تعالى - « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ... » وقوله - تعالى - : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ... »

أو يكون « واستفتحوا » من الفتاحة بمعنى الحكم والقضاء ، أى : واستحكموا الله - تعالى - وطلبوا منه القضاء والحكم ، ومنه قوله - تعالى - « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

والجملة الكريمة معطوفة على « فأوحى إليهم ربهم » ، والضمير يعود إلى الرسل .

والمعنى : والتمس الرسل من خالقهم - عز وجل - أن ينصرهم على أعدائه وأعدائهم ، وأن يحكم بحكمه العادل بينهم وبين هؤلاء المكذبين .

قالوا : ومما يؤيد ذلك قراءة ابن عباس ومجاهد وابن محيصن « واستفتحوا » بكسر التاء - أمرا للرسل .

ومنهم من يرى أن الضمير يعود للفريقين : الرسل ومكذبيهم . أى : أن كل فريق دعا الله أن ينصره على الفريق الآخر .

وقوله « وخاب كل جبار عنيد » بيان لنتيجة الاستفتاح .

والجبار : الإنسان المتكبر المغرور المتعالى على غيره ، المدعى لمنزلة أو لشىء ليس من حقه .

والعنيد : مأخوذ من العَنَد - بفتح النون - بمعنى الميل . يقال : عَنَد فلانٌ عن الطريق - كنصر وضرب وكرم - عنودا ، إذا مال عنها . وعَنَد فلان عن الحق ، إذا خالفه .

والجملة الكريمة معطوفة على محذوف ، والتقدير . واستفتحوا فنصر الله - تعالى - رسله على أعدائهم ، وخاب وخسر ، كل متكبر متجبر معاند للحق .

قال ابن كثير : قوله « وخاب كل جبار عنيد » أي : متجبر فى نفسه معاند للحق ، كما قال — تعالى — ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد »[1] .

وفى الحديث : يؤتى بجهنم يوم القيامة ، فتنادى الخلائق فتقول . إنى وكلت بكل جبار عنيد . . »[2]

وقال — سبحانه — « وخاب كل جبار عنيد » ولم يقل وخاب الذين كفروا كما هو مقتضى الظاهر من السياق ، للتنبيه على أن الذين كفروا كانوا جبابرة معاندين للحق ، وأن كل من كان كذلك فلا بد من أن تكون عاقبته الخيبة والخسران .

وقوله « من ورائه جهنم » صفة لجبار عنيد .

والمراد بقوله « من ورائه » أى : من امامه ، أو من بعد هلاكه :

أى : من أمام خيبة هذا الجبار العنيد جهنم ، تنتظر ليحل بها ، بسبب كفره وظلمه.

قال صاحب أضواء البيان : قوله « من ورائه جهنم . . » الوراء هنا بمعنى الأمام كما هو ظاهر ، ومنه قوله — تعالى — « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » أى : وكان أمامهم ملك . . .

ومنه قول الشاعر :

أترجو بنو مروان سمعى وطاعتى   وقومى تميم والفـــلاة ورائيا

أى والفلاة أماميا .

وقال بعضهم : قوله « من ورائه » أى من بعد هلاكه ، ومنه قول النابغة:

(١) سورة ق الآيات من ٢٤ — ٢٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٣

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

أي : وليس بعد الله للمرء مذهب ، والأول هو الظاهر وهو الحق »[1] .

وعلى أية حال فإن الجملة الكريمة تدل على ان جهنم تنتظر هـذا الجبار العنيد ، وتترصد له ، وتتبعه حيث كان ، بحيث لايستطيع الفرار منها ، أو الهرب عنها .

وجملة « ويسقى من ماء صديد » معطوفة على مقدر ، أي : من ورائه جهنم يلقى فيها مذموما مدحورا ، ويسقى من ماء مخصوص ليس كالمياه المعهودة ، هو الصديد ، أي ما يسيل من أجساد أهل النار من دم مختلط بقيح ، واشتقاقه من الصد ، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته .

وهو بدل أو عطف بيان من ماء .

وقوله « يتجرعه ولا يكاد يسيغه .. » بيان لحالة هذا الجبار العنيد عنـد تعاطيه الصديد .

والتجرع : تكلف الجرع وهو بلع الماء ، وفعله ـ كسمع ومنع ـ

ويسيغه : من السوغ وهو انحدار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول يقال ساغ الشراب سَوْغا وسواغا إذا كان سهل المدخل .

أى : يتكلف بلع هذا الصديد مرة بعد أخرى لمرارته وقبحه ، ولا يقارب أن يسيغه فضلا عن الإساغة . بل يغص به فيشربه بعد عناء ومشقة جرعة غب جرعة »

وقوله « ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ومن ورائه عذاب غليظ » معطوف على قوله « يتجرعه » لبيان حالة أخرى من أحوال شقائه وعذابه .

---

(١) تفسير أضواء البيان حـ ٣ ص ١٠٦ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى

أى : وتأتيه الأسباب المؤدية للموت والهلاك من كل جهة من الجهات ، ومن كل موضع من مواضع بدنه ، وما هو بميت فيستريح من هــذا الشقاء والعذاب ، ومن ورائه كل ذلك عذاب غليظ أى : شاق شديد لا يقل فى ألمه عما هو فيه من نكال .

وشبيه بهذه الجملة قوله — تعالى — « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزى كل كفور »(١) .

وقوله — تعالى — « ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى »(٢) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد صورت لنا سوء عاقبة المكذبين للحق تصويرا مؤثرا ، تهتز له النفس ، وتوجل منه القلوب .

ثم ضرب — سبحانه — مثلا لأعمال الكافرين فى حبوطها وذهابها يوم القيامة ، وساق الأدلة الدالة على قدرته القاهرة ، وصور أحوال الكافرين يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وحكى ما يقوله الضعفاء للمستكبرين وما يقوله الشيطان لأتباعه فى هذا اليوم العصيب ، وما أعده للمؤمنين الصادقين فى هذا اليوم فقال — تعالى — :

« مثلُ الذينَ كفرُوا بربِّهم أعمالُهم كرمادٍ اشتدَّتْ به الريحُ فى يومٍ عاصفٍ لا يقدِرُونَ ممــا كسَبُوا على شيء ، ذلكَ هُوَ الضلالُ البعيــدُ (١٨) ألم تر أنّ اللهَ خلقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ ، إنْ يشأ يُذهِبكُم ويأتِ بخَلْقٍ جـديدٍ (١٩) وما ذلكَ على اللهِ بعزيزٍ (٢٠)

(١) سورة فاطر الآية ٣٦

(٢) سورة الأعلى الآيات من ١١ — ١٣

وبرزوا لله جميعاً فقالَ الضُعفاءُ للذينَ استكبرُوا ، إنَّا كنَّا لكُم تبعاً ، فهل أنتم مُغنُونَ عنَّا مِنْ عذابِ اللهِ من شيء قالُوا لو هدانَا اللهُ لهدَينا كُم سواءٌ علينا أجزِعنَا أم صبَرنا ما لَنا من محيصٍ (٢١) وقال الشيطانُ لما قُضِىَ الأمرُ ، إن اللهَ وعدَكُم وعدَ الحقِّ وَوَعدتُكم فأخلفتُكم ، وما كانَ لىَ عليكُم من سلطانٍ إلا أنْ دعوتُكم فاستجبتُم لِى ، فلا تلُومُونِى ولومُوا أنفُسَكُم ، ما أنتُم بمُصرِخكُم وما أنتُم بمُصرِخىَّ ، إنى كفرتُ بما أشركتُمونِ مِنْ قبلُ ، إنَّ الظالمينَ لهم عذابٌ أليمٌ (٢٢) وأُدخِلَ الذينَ آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ جناتٍ تجرِى مِنْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها بإذنِ ربِّهم ، تحيتُهم فيها سلامٌ (٢٣) » .

قال الإمام الرازى : اعلم أنه ـ تعالى ـ لما ذكر أنواع عذابهم فى الآية المتقدمة ، بين فى هذه الآية وهى قوله ـ تعالى « مثل الذين كفروا بربهم ... »

أن أعمالهم بأسرها ضائعة باطلة ، لا ينتفعون بشىء منها . وعند هذا يظهر كمال خسرانهم، لأنهم لايجدون فى القيامة إلا العقاب الشديد وكل ما عملوه فى الدنيا وجدوه ضائعا باطلا »[١] .

والمثل : النظير والشبيه . ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمخالفة مضربه بمورده . ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ، ثم استعير للصفة ، أو الحال ، أو القصة إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ح ١٩ ص ١٠٤

والمراد بأعمال الذين كفروا فى الآية الكريمة : ما كانوا يقومون به فى الدنيا من أعمال حسنة كإطعام الطعام ، ومساعدة المحتاجين ، وإكرام الضيف ، إلى غير ذلك من الأعمال الطيبة .

والرماد : ما يتبقى من الشيء بعد احتراق أصله ، كالمتبقى من الخشب أو الحطب بعد إحتراقهما .

والعاصف : من العصف وهو اشتداد الريح ، وقوة هبوبها .

قال الجمل : وقوله : « مثل الذين كفروا . . . » فيه أوجه من الإعراب : أحدها وهو مذهب سيبويه أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره : فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا ، وتكون الجملة من قوله « أعمالهم كرماد . . . » مستأنفة جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف مثلهم .. ؟ فقيل : كيت وكيت .

والثانى : أن يكون « مثل » مبتدأ ، و « أعمالهم » مبتد ثان ، و « كرماد » خبر المبتدأ الثانى ، والمبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول .... »[1]

والمعنى : حال أعمال الذين كفروا فى حبوطها وذهابها وعدم انتفاعهم بشيء منها فى الآخرة ، كحال الرماد المكدس الذى أتت عليه الرياح العاصفة ، فحقته وبددته ، ومزقته تمزيقا لا يرجى معه إجتماع .

فالآية الكريمة تشبيه بليغ لما يعمله الكافرون فى الدنيا من أعمال البر والخير .

ووجه الشبه : الضياع والتفرق وعدم الانتفاع فى كل ، فكما أن الريح العاصف تجعل الرماد هباء منثورا ، فكذلك اعمال الكافرين فى الآخرة تصير هباء منثورا . لأنها أعمال بنيت على غير أساس من الإيمان وإخلاص العبادة لله - تعالى - .

ووصف - سبحانه - اليوم بأنه عاصف ، مع أن العصف وشدة الريح ،

(١) حاشيه الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٢٠

للمبالغة فى وصف زمانها - وهو اليوم - بذلك، كما يقال : يوم حار ويوم بارد، مع أن الحر والبرد فيهما وليس منهما .

وقوله - سبحانه - « لا يقدرون مما كسبوا على شيء » بيان للمقصود من التشبيه ، وهو أن هؤلاء الكافرين ، لا يقدرون يوم القيامة ، على الانتفاع بشيء مما فعلوه فى الدنيا من أفعال البر والخير ، لأن كفرهم أحبطها فذهبت سدى . دون أن يستفيدوا منها ثوابا ، أو تخفف عنهم عذابا .

قال الآلوسى : وفى الصحيح عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : يارسول الله ، إن ابن جدعان فى الجاهلية كان يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعه ؟ قال : لا ينفعه، لأنه لم يقل ربي اغفر لى خطيئتي يوم الدين»(1)

وقال الإمام ابن كثير - ما ملخصه -: هذا مثل ضربه الله - تعالى - لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت وعدموها وهم أحوج ما كانوا إليها ...

كما قال - تعالى - « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا »(2) .

وكما قال - تعالى - « مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا ، كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته(3) ... »(4)

واسم الإشارة فى قوله « ذلك هو الضلال البعيد » يعود إلى ما دل عليه التمثيل من بطلان أعمالهم ، وذهاب أثرها .

أى : ذلك الحبوط لأعمالهم ، وعدم انتفاعهم بشيء منها ، هو الضلال البعيد .

---

(1) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٨٣ .
(2) سورة الفرقان الآية ٢٣ .
(3) سورة آل عمران الآية ١١٧ .
(4) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ...

أى : البالغ أقصى نهايته ، والذى ينتهى بصاحبه إلى الهلاك والعـــذاب المهين .

ووصف ـ سبحانه ـ الضلال بالبعد ، لأنه يؤدى إلى خسران لا يمكن تداركه ، ولا يرجى الخلاص منه .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ، بعض مظاهر قدرته التى لا يعجزها شىء فقال ـ تعالى ـ : « ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » .

والخطاب فى قوله « ألم تر . . » لكل من يصلح له بدون تعيين . والاستفهام للتقرير .

والرؤية مستعملة فى العلم الناشىء عن النظر والتفكر والتأمل فى ملكوت السموات والأرض .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ « ألم تر . . . » هذا التعبير قد يذكر لمن تقدم علمه فيكون للتعجب ، وقد يذكر لمن لا يكون كذلك ، فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهر فى ذلك حتى أجرى مجرى المثل فى هذا الباب ، بأن شبه من لم ير الشىء بحال من رآه فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه ، وأنه ينبغى أن يتعجب منه ، ثم أجرى الكلام معه ، كما يجرى مع من رأى ، قصدا إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب . . . »(1)

والمعنى : ألم تعلم ـ أيها العاقل ـ أن الله ـ تعالى ـ « خلق السموات والأرض بالحق » .

أى : خلقهما بالحكمة البالغة المنزهة عن العبث ، وبالوجه الصحيح الذى تقتضيه إرادته ، وهو ـ سبحانه ـ « إن يشأ يذهبكم » أى ـ يهلككم أيها الناس

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ١٦٠ .

« ويأت بخلق جديد » سواكم ، لأن القادر على خلق السموات والأرض وما فيهما من أجرام عظيمة ، يكون على خلق غيرهما أقدر ، كما قال - تعالى - «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس . » (١) .

وقوله - سبحانه - « وما ذلك على الله بعزيز » معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

أي : إن يشأ - سبحانه - يهلككم - أيها الناس - ويأت بمخلوقين آخرين غيركم ، وما ذلك الإذهاب بكم ، والإتيان بغيركم بمتعذر على الله ، أو بمتعاص عليه ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء ، ولا يحول دون نفاذ قدرته حائل .

وشبيه بهذا قوله - تعالى - « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز »(٢) .

وقوله - تعالى - : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »(٣) .

وقوله - تعالى - : « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا »(٤) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا من الحوار الذي يدور يوم القيامة بين الضعفاء والمستكبرين ، بين الأتباع والمتبوعين ... فقال - تعالى - : «وبرزوا

---

(١) سورة غافر الآية ٥٧ .
(٢) سورة فاطر الآيات من ١٥ — ١٧ .
(٣) سورة محمد الآية ٣٨ .
(٤) سورة النساء الآية ١٣٣ .

لله جميعا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ... »

وقوله « وبرزوا » من البروز بمعنى الظهور ، مأخوذ من البراز وهو الفضاء الواسع ، الذى يظهر فيه الناس بدون استتار .

أى : وخرج الكافرون جميعا من قبورهم يوم القيامة ، وظهروا ظهوراً لا خفاء معه ، لكى يحاسبهم - سبحانه - على أعمالهم فى الدنيا .

وقال - سبحانه - « وبرزوا » بلفظ الفعل الماضى مع أن الحديث عن يوم القيامة ، للتنبيه على تحقق وقوع هذا الخروج ، وأنه كائن لا محالة .

وعبر - سبحانه - بهذا التعبير ، مع أنهم لا يخفون عليه سواء أبرزوا أم لم يبرزوا ، لأنهم كانوا فى الدنيا يستترون عن العيون عن اجتراحهم للسيئات ويظنون أن ذلك يخفى على الله - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - ما سيقوله الضعفاء للمستكبرين فى هذا الموقف العصيب فقال :

« فقال الضعفاء » وهم العوام والأتباع الذين فقدوا نعمة التفكير ، ونعمة حرية الإرادة ، فهانوا وذلوا ...

قال هؤلاء الضعفاء « للذين استكبروا » وهم السادة المتبوعون الذين كانوا يقودون أتباعهم إلى طريق العمى والضلال .

« إنا كنا لكم » - أيها السادة - « تبعا » جمع تابع كخادم وخدم .

أى : إنا كنا فى الدنيا تابعين لكم ، ومنقادين لأمركم ، فى تكذيب الرسل ، وفى كل ما تريدونه منا .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء » للتقريع والتفجع .

ومغنون من الإغناء بمعنى الدفاع والنصرة .

قال الشوكانى : يقال أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى , وأغناه إذا أوصل إليه النفع »(١) .

أى : فهل أنتم — أيها المستكبرون — دافعون عنا شيئا من عذاب الله النازل بنا ، حتى ولو كان هذا الشيء المدفوع قليلا ؟ إن كان فى إمكانكم ذلك فاظهروه لنا ، فقد كنتم فى الدنيا سادتنا وكبراءنا ، وكنتم تزعمون أنكم أصحاب الحظوة يوم القيامة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين « من » فى « من عذاب الله » وبينه فى « من شيء » ؟

قلت : الأولى للتبيين ، والثانيه للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذى هو عذاب الله ؟ ويجوز أن يكون للتبعيض معا بمعنى : هل أنتم مغنون عنا بعض شيء ، هو بعض عذاب الله ؟ أى : بعض بعض عذاب الله »(٢) .

ثم حكى — سبحانه — رد المستكبرين على المستضعفين فقال : « قالوا لو هدانا الله لهديناكم .. »

أى : قال المستكبرون — بضيق وتحسر — فى ردهم على المستضعفين : لو هدانا الله — تعالى — إلى الإيمان الموصل إلى النجاة من هذا العذاب الأليم « لهديناكم » إليه ، ولكن ضللنا عنه وأضللناكم معنا ، واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، ولو كنا نستطيع النفع لنفعنا أنفسنا ...

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » ،

---

(١) تفسير الشوكانى حـ ٣ ص ٣٠ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٣ .

والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده لشدة اضطرابه وذهوله يقال : جَزِع فلان يجزَع جزعا وجزوعاً ، إذا ضعف عن حمل ما نزل به ولم يجد صبراً .

والمحيص : المهرب والمنجى من العذاب . يقال : حاص فلان عن الشيء يحيص حيصا ومحيصا ، إذا عدل عنه على جهة الهرب والفرار .

أي : مستو عندنا الجزع مما نحن فيه من عذاب ، أو الصبر على ذلك ، وليس لنا من مهرب أو منجى من هذا المصير الأليم .

فالآية الكريمة تحكى أقوال الضعفاء يوم القيامة ، وهى أقوال يبدو فيها طابع الذلة والمهانة كما هو شأنهم فى الدنيا ، كما تحكى رد المستكبرين عليهم ، وهو رد يبدو فيه التبرم والتفجع والتأنيب من طرف خفى لهؤلاء الضعفاء ، والتسليم بالواقع الأليم الذى لا محيص لهم عنه .

قال الإمام ابن كثير : قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله — تعالى — ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتى نصبر ، فصبروا صبراً لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك ، فعند ذلك قالوا : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص »[1] .

ثم حكى — سبحانه — بعد ذلك ما يقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة ، فقال — تعالى — : « وقال الشيطان لما قضى الأمر ، إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ... » والمراد بالشيطان هنا : إبليس — لعنه الله — .

قال الفخر الرازى . وأما الشيطان فالمراد به إبليس ، لأن لفظ الشيطان مفرد فيتناول الواحد ، وإبليس رأس الشياطين ورئيسهم ، فحمل اللفظ عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٨ .

أولى . لا سيما وقد قال — رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إذا جمع الله الخلق وقضى بينهم ، يقول الكافر ، قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ، ما هو إلا إبليس ، فهو الذى أضلنا ، فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول .. »[1].

والمراد بقوله — سبحانه — « لما قضى الأمر » أى : حين تم الحساب ، وعرف أهل الجنة ثوابهم ، وعرف أهل النار مصيرهم ، واستقر كل فريق فى المكان الذى أعده الله — تعالى — له .

والمقصود من حكاية ما يقوله الشيطان للكافرين فى هذا اليوم : تحذير المؤمنين من وسوسته وإغوائه ، حتى ينجو من العذاب الذى سيحل بأتباعه يوم القيامة .

والمراد بالحق فى قوله « إن الله وعدكم وعد الحق » : الصدق والوفاء بما وعدهم به .

والمراد بالإخلاف فى قوله « ووعدتكم فأخلفتكم » : الكذب والغدر وعدم الوفاء بما مناهم به ، من أمانى باطلة .

قال — تعالى — : « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا »[2] على ألسنة رسله وإضافة الوعد إلى الحق من إضافة الموصوف إلى الصفة أى : إن الله — تعالى — وعدكم الوعد الحق الذى لا نقض له ، وهو أن الجزاء حق ، والبعث حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ووعدتكم وعداً باطلا بأنه لا بعث ولا حساب ... فأخلفتكم ما وعدتكم به ، وظهر كذبى فيما قلته لكم .

ثم أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى .... »

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١١٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٠ .

والسلطان : اسم مصدر بمعنى التسلط والقهر والغلبة .

أي : وما كان لى فيما وعدتكم به من تسلط عليكم ، أو إجبار لكم، لكنى دعوتكم إلى مادعوتكم إليه من باطل وغواية ، فانقدتم لدعوتى ، واستجبتم لوسوستى عن طواعية واختيار .

فالاستثناء فى قوله « إلا أن دعوتكم » استثناء منقطع ، لأن ما بعد حرف الاستثناء ليس من جنس ماقبله ، وبعضهم يرى أن الاستثناء متصل .

قال الجمل : وفى هذا الاستثناء وجهان : أظهرهما : أنه استثناء منقطع ، لأن دعاءه ليس من جنس السلطان وهو الحجة البينة . والثانى : أنه متصل لأن القدرة على حمل الإنسان على الشيء تارة تكون بالقهر ، وتارة تكون بتقوية الداعية فى قلبه بإلقاء الوساوس إليه . فهو نوع من التسلط »[1] .

وقوله « فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » زيادة فى تأنيبهم وفى حسراتهم على انقيادهم له .

أي : فلا تلومونى بسبب وعودى إياكم . ولوموا أنفسكم ، لأنكم تقبلتم هذه الوعود الكاذبة بدون تفكر أو تأمل ، وأعرضتم عن الحق الواضح الذى جاءكم من عند ربكم ، ومالك أمركم .

ثم ينفض يده منهم ، ويخلى بينهم وبين مصيرهم السيء فيقول : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » .

أي : ما أنا بمغيثكم ومنقذكم مما أنتم فيه من عذاب ، وما أنتم بمغيثى مما أنا فيه من عذاب - أيضا - ، فقد انقطعت بيننا الأواصر والصلات ...

قال القرطبي ماملخصه : والصارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة والمعاونة ، والمصرخ هو المغيث لغيره ... قال أمية بن أبى الصلت :

ولا تجزعوا إنى لكم غير مُصرِخ   وليس لكم عندى غناء ولا نصر

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٢ .

ويقال : صرَخ فلان أي : استغاث يصرخ صرخا وصراخا وصرخة ..

ومنه : استصرخني فلان فأصرخته ، أي : استغاث بي فأغثته ... »[١]

وجملة « إني كفرت بما أشركتمون من قبل .. » مستأنفة ، لإظهار المزيد من التنصل والتبرى من كل علاقة بينه وبينهم .

و « ما » في قوله « بما أشركتمون » الظاهر أنها مصدرية .

قال الآلوسى ماملخصه : وأراد بقوله « إني كفرت » أي : إني كفرت اليوم « بما أشركتمون من قبل » .

أي : من قبل هذا اليوم ، يعني في الدنيا ، و « ما » مصدرية ، و « من قبل » متعلق بأشركتمون .

والمعنى : إني كفرت بإشراككم إياي لله - تعالى - في الطاعة ، لأنهم كانوا يطيعون الشيطان فيما يزينه لهم من عبادة غير الله - تعالى - ، ومن أفعال الشر ...

ومراد اللعين : أنه إن كان إشراككم لى مع الله - تعالى - ، هو الذى أطمعكم فى نصرتى لكم ... فإنى متبرأ من هذا الشرك ، فلم يبق بينى وبينكم علاقة ... فالكلام محمول على إنشاء التبرى منهم يوم القيامة ...

ثم قال : وجوز غير واحد أن تكون « ما » موصولة بمعنى من ، والعائد محذوف ، و« من قبل » متعلق بكفرت . أى : إنى كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه . أى : جعلتمونى شريكا له فى الطاعة وهو الله - عز وجل - ...

والكلام على هذا إقرار من اللعين بقدم كفره ، وبسبق خطيئته. فلا يمكنه أن يقدم لهم عونا أو نصرا ... »[٢]

---

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٣٥٧ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٨٩ .

وجمله « إن الظالمين لهم عذاب أليم » فى موقع التعليل لما تقدم ، والظاهر أنها ابتداء كلام من جهته - تعالى - ، لبيان سوء عاقبة الظالمين .

ويجوز أن تكون من تتمة كلام إبليس - الذى حكاه القرآن عنه - ، ويكون الغرض منها قطع أطماعهم فى الإغاثة أو النصر ، وتنبيه المؤمنين فى كل زمان ومكان إلى عداوة الشيطان لهم . وتحذيرهم من إتباع خطوته .

قال الشيخ الشوكانى - رحمه الله - ماملخصه : لقد قال الشيطان للكافرين فى هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم ، ويقطع قلوبهم ، فأوضح لهم أولا : أن مواعيده التى كان يعدهم بها فى الدنيا باطله معارضه لوعد الحق من الله - تعالى - ، وأنه أخلفهم ماوعدهم به . . .

ثم أوضح لهم ثانيا : بأنهم قبلوا قوله بما لا يتفق مع العقل ، لعدم الحجة التى لابد للعاقل منها فى قبول قول غيره .

ثم أوضح لهم ثالثا : بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان ، الخالية عن أيسر شىء مما يتمسك به العقلاء .

ثم نعى عليهم رابعا : ما وقعوا فيه ، ودفع لومهم له ، وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم ، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل المحض الذى لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل .

ثم أوضح لهم خامسا : بأنه لا نصر عنده ولا إغاثه . . بل هو مثلهم فى الوقوع فى البليه . .

ثم صرح لهم سادسا : بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له - وهو إشراكه مع الله - تعالى - فتضاعفت عليهم الحسرات ، وتوالت عليهم المصائب .

وإذا كانت جمله « إن الظالمين لهم عذاب أليم » من تتمه كلامه - كما ذهب إليه البعض - فهو نوع سابع من كلامه الذى خاطبهم به ، فيكون قد أثبت

لهم الظلم ، وذكر لهم جزاءه ... »(١)

وبعد هذا الحديث المتنوع عن سوء عاقبة الكافرين ... بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين من ثواب جزيل ، وأجر عظيم فقال - تعالى - :

« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم » .

أى : وأدخل الله - تعالى - فى هذا اليوم ، وهو يوم القيامة ، الذين آمنوا بكل مايجب الإيمان به ، وعملوا الأعمال الصالحة ، أدخلهم - سبحانه - جنات تجرى من تحت ثمارها وأشجارها الأنهار ، حالة كونهم خالدين فيها خلودا أبديا لاموت معه ولاتعب .

وجاء التعبير بصيغة الماضى لتحقق الوقوع ، وتعجيل البشارة وقوله «بإذن ربهم » أى : بإرادته - سبحانه - وتوفيقه وهدايته لهم .

وقوله « تحيتهم فيها سلام » أى : تحيتهم فى الجنة سلام لهم من خالقهم - عز وجل - ومن الملائكة ، ومن بعضهم لبعض .

كما قال - تعالى - « تحيتهم يوم يلقونه سلام »(٢)

وكما قال - تعالى - « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم ... »(٣)

وكما قال - سبحانه - « ويلقون فيها تحية وسلاما »(٤) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت بأبلغ أسلوب بوار أعمال الذين

---

(١) تفسير الشوكانى ج ٣ ص ١٠٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٤ .

(٣) سورة الرعد الآية ٢٣ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٧٠ .

كفروا ، وسوء أحوالهم يوم القيامة ، كما بينت حسن عاقبة المؤمنين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

وبعد بين ـ سبحانه ـ حال السعداء والأشقياء يوم القيامة ، أتبع ذلك بضرب مثل لهما زيادة فى التوضيح والتقرير فقال ـ تعالى ـ :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً ، كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) .

والخطاب فى قوله « ألم تر . . . » للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو لكل من يصلح للخطاب ، والاستفهام للتقرير ، والرؤية مستعملة فى العلم الناشىء عن التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ « ألم تر . . . » هذا التعبير قد يذكر لمن تقدم علمه فيكون للتعجب ، وقد يذكر لمن ليس كذلك ، فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهر فى ذلك حتى أجرى مجرى المثل فى ذلك ، بأن شبه من لم ير الشىء بحال من رآه فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه ، ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأى ، قصدا إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب . . . »(١)

والمثل : يطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه لمورده .

وقوله « مثلا » انتصب على أنه مفعول به لضرب ، وقوله « كلمة » بدل منه أو عطف بيان .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ١٦٠

والمراد بالكلمة الطيبة : كلمة الإسلام ، ومايترتب عليها من عمل صالح، وقول طيب .

قال الآلوسى ماملخصه : والمراد بالشجرة الطيبة ـ المشبه بها ـ النخلة عند الأكثرين وروى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمه والضحاك وابن زيد ...

وأخرج عبد الرزاق والترمذى وغيرهما عن شعيب بن الحجاب قال : كنا عند أنس . فأتينا بطبق عليه رطب ، فقال أنس لأبى العاليه : كل يا أباالعالية ، فإن هذا من الشجرة التى ذكرها الله ـ تعالى ـ فى كتابه « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ... »

وأخرج الترمذى ـ أيضا ـ والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه عن أنس قال : أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقناع من بسر ـ أى بطبق من تمر لم ينضج بعد ـ فقال : مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ... قال : هى النخلة »

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنها شجرة جوز الهند .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم أنها شجرة فى الجنه ، وقيل كل شجرة مثمرة كالنخله ، وكشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك . ثم قال :

وأنت تعلم أنه إذا صح الحديث ولم يتأت حمل مافيه على التمثيل لا ينبغى العدول عنه »(١)

وكأن الإمام الآلوسى بهذا القول يريد أن يرجح أن المراد بالشجرة الطيبه النخلة ، لتصريح الآثار بذلك .

وقد رجح ابن جرير أن المراد بها النخله فقال ماملخصه : واختلفوا فى فى المراد بالشجرة الطيبه ، فقال بعضهم هى النخله ... وقال آخرون : هى شجرة فى الجنه ...

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٩١ .

وأولى القولين بالصواب فى ذلك قول من قال هى النخلة ، لصحه الخبر عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى ذلك ... ، (١)

والمعنى : ألم تر — أيها المخاطب — كيف إختار الله — تعالى — مثلا ، ووضعه فى موضعه لللائق به ، والمناسب له ، وهذا المثل لكلمتى الإيمان والكفر ، حيث شبه — سبحانه — الكلمة الطيبة وهى كلمة الإسلام ، بالشجرة الطيبه ، أى النافعه فى جميع أحوالها ، وهى النخلة .

ثم وصف — سبحانه — هذه الشجرة بصفات حسنه فقال : « أصلها ثابت .. »

أى : ضارب بعروقة فى باطن الأرض ، فصارت بذلك راسخه الأركان ثابتة البنيان .

« وفرعها » أى : أعلاها وما أمتد منها من أغصان ، مشتق من الإفتراع بمعنى الإعتلاء « فى السماء » أى : فى جهه السماء من حيث العلو والارتفاع ، وهذا مما يزيد الشجرة ، جمالا وحسن منظر .

والمراد بالأكل فى قوله — تعالى — تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .. » المأكول ، وهو الثمر الناتج عنها .

والمراد بالحين : الوقت الذى حدده الله — تعالى — للانتفاع بثمارها من غير تعيين بزمن معين من صباح أو مساء ....

قال الشوكانى ما ملخصه : قوله « تؤتى أكلها كل حين » كل وقت « بإذن ربها » بإرادته ومشيئته .

وقيل : المراد بكونها تؤتى أكلها كل حين : أى كل ساعه من الساعات

---

(١) تفسير إبن جرير جـ ١٣ صـ ١٣٧

من ليل أو نهار فى جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف . وقيل المراد فى أوقات مختلفه من غير تعيين .

وقيل : كل غدوة وعشيه ، وقيل : كل شهر ....

وهـذه الأقوال متقاربه . لأن الحين عند جمهور أهل اللغة بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره ... »[1]

وبهذا نرى أن الله — تعالى — قد وصف هـذه الشجرة بأربع صفات ، أولهـا أنها طيبه ، وثانيها . أن أصلها ثابت ، وثالثها : أن فرعهـا فى السماء ، ورابعها : أنها تؤتى ثمارها كل حين بإذن ربها .

وهذه الأوصاف تدل على فخامه شأنها ، وجمال منظرها ، وطيب ثمرها ، ودوام نفعها ، كما تدل على أن المشبه وهو الكلمه الطيبة ، مطابق فى هذه الأوصاف للمشبه به وهو الشجرة الطيبه .

وقوله — سبحانه — : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » بيان للحكمه التى من أجلها سيقت الأمثال ، وهى التذكر والتفكير والاعتبار.

أى : ويضرب الله — تعـالى الأمثـال للناس رجاء أن يعتبروا ويتعظوا ويتذكروا ما أمرهم — سبحـانه — بتذكره ، إذ ضرب الأمثـال تقريب للبعيد ، وتقرير للقريب ، وتصوير للمعانى المعقولة بالصور المحسوسه .

وبعد أن بين — سبحانه — مثال كلمه الايمان ، أتبعه بمثال كلمة الكفر فقال : « ومثل كلمه خبيثه » وهى كلمة الكفر .

« كشجرة خبيثة » أى قبيحه لانفع فيها ، ولا خير يرجى منها .

« إجتثت من فوق الأرض » أى : إقتلعت جثتها وهيئتها من فوق الأرض ، لقرب عروقها وجذورها من سطحها .

(١) تفسير الشوكانى جـ ٣ صـ ١٠٦

يقال : إجتثت الشيء إجتثاثا ، إذا إقتلعته وإستأصلته ، وهو إفتعال من لفظ الجثة وهى ذات الشيء .

وقوله « مالها من قرار » تأكيد لمعنى الاجتثاث لأن اجتثاث الشيء بسهولة ، سببه عدم وجود أصل له .

أى : ليس لها إستقرار وثبات على الأرض ، وكذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يتقبل منه شيء .

والمراد بهذه الشجرة الخبيثة : شجرة الحنظل فعن أنس بن مالك أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « ومثل كلمه خبيثه كشجرة خبيثة » هى الحنظلة . . . » [1]

وقيل : شجرة الثوم : وقيل : شجرة الشوك . . . وقيل كل شجر لايطيب له ثمر وفى رواية عن إبن عباس أنها شجرة لم تخلق على الأرض . . .

وقال إبن عطية : الظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معينه ، جامعة لتلك الأوصاف التى وصفها الله بها .

وقوله — سبحانه — : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخره » بيان لفضل الله — تعالى — على هؤلاء المؤمنين، ولحسن عاقبتهم . . . .

والمراد بالحياة الدنيا : مدة حياتهم فى هذه الدنيا .

والمراد بالآخرة : مايشمل سؤالهم فى القبر وسؤالهم فى مواقف القيامة .

والمعنى : يثبت الله — تعالى — الذين آمنوا بالقول الثابت أى : الصادق الذى لاشك فيه ، فى الحياة الدنيا ، بأن يجعلهم متمسكين بالحق ، ثابتين عليه دون أن يصرفهم عن ذلك ترغيب أو ترهيب .

(١) تفسير إبن كثير حـ ٤ صـ ٤١٣

ويثبتهم أيضاً بعد مماتهم ، بأن يوفقهم إلى الجواب السديد عند سؤالهم في القبر وعند سؤالهم في مواقف يوم القيامه .

قال الآلوسي ما ملخصه : قوله — تعالى — « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » أي : الذي ثبت عندهم وتمكن في قلوبهم ، وهو الكلمة الطيبه التي ذكرت صفتها العجيبة ..... « في الحياة الدنيا » أي يثبتهم بالبقاء على ذلك مدة حياتهم : فلا يزلون عند الفتنة ... « وفي الآخرة » أي بعد الموت وذلك في القبر الذي هو أول منزل من منازل الآخرة ، وفي مواقف القيامة ، فلا يتلعثمون إذ سئلوا عن معتقدهم هناك ، ولا تدهشهم الأهوال .... » (١)

هذا ، وقد ساق الامام إبن كثير هنا جملة من الأحاديث التي وردت في سؤال القبر ، منها قوله : قال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، أخبرني علقمة بن مرثد قال :

سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فذلك قوله : « ويثبت الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة » (٢)

وقوله : « ويضل الله الظالمين » بيان لسوء عاقبة أصحاب المثل الثاني وهم الكافرون .

أي : ويخلق فيهم الضلال عن الحق بسبب إيثارهم الكفر على الايمان .

« ويفعل الله ما يشاء » فعله ، من تثبيت من يريد تثبيته ، وإضلال من يريد إضلاله ، حسبما تقتضيه إرادته وحكمته ، لاراد لأمره ، ولا معقب لحكمه .

---

(١) تفسير الآلوسي ج ١٣ ص ١٩٤

(٢) راجع تفسير إبن كثير ج ٤ من ص ١٣ : إلى ص ٤٢٦ طبعت دار الشعب .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مصير الجاحدين الذين قابلوا نعم الله بالكنود والجحود ، وأمر المؤمنين بأداء ما كلفهم به - سبحانه - من عبادات وقربات، وساق لهم ألوانا من الآلاء التى تفضل بها على عباده ، فقال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ بدَّلُوا نعمةَ اللهِ كُفراً ، وأحلُّوا قومهم دارَ البَوارِ (٢٨) جهنمَ يصلَوْنَها وبئسَ القَرارُ (٢٩) وجعلُوا لله أنداداً ليُضِلُّوا عن سبيله ، قُلْ تمتَّعُوا فإنَّ مصيرَكُم إلى النَّارِ (٣٠) قل لعبادِيَ الذينَ آمنُوا يُقيمُوا الصلاةَ ويُنفِقُوا مما رزقناهُم سِرًّا وعلانيةً من قبلِ أن يأتِيَ يومٌ لا بيعٌ فيهِ ولا خِلَالٌ (٣١) اللهُ الذى خلقَ السمواتِ والأرضَ وأنزلَ من السماء ماءً فأخرجَ به من الثمراتِ رزقاً لكُم ، وسخّر لكم الفلكَ لتجرِيَ فى البحرِ بأمرِه ، وسخّر لكم الأنهارَ (٣٢) وسخّر لكُم الشَّمسَ والقمرَ دائبَيْنِ وسخّر لكُم الليلَ والنهارَ (٣٣) وآتاكُم من كلِّ ما سألتموه وإن تعدُّوا نعمةَ الله لا تحصوهَا ، إنَّ الإنسانَ لظلومٌ كفار (٣٤) » .

وقوله - سبحانه - « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ... » الخطاب فيه للنبى - صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب .

والاستفهام للتعجيب من أحوالهم الذميمة .

وبدلوا من التبديل بمعنى التغيير والتحويل . والمراد به : وضع الشىء فى غير موضعه ومقابلة نعم الله بالجحود وعدم الشكر .

ونعمة الله التى بدلوها ، تشمل كفرهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى أرسله الله - تعالى - لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، كما تشمل إكرام الله

لهم — أى أهل مكة — بأن جعلهم فى حرم آمن ، وجعلهم سدنة بيته ... ولكنهم لم يشكروا الله على هذه النعم ، بل أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : « بدلوا نعمة الله » لأن شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا ، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلا . . .

وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمه ، وجعلهم قوام بيته ، وأكرمهم بمحمد — صلى الله عليه وسلم فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم ، أو أصابهم الله بالنعمة فى الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين ، فكفروا نعمته ، فضربهم بالقحط سبع سنين ، فحصل لهم الكفر بدل النعمة ، وكذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر ، قد ذهبت النعمة عنهم ، وبقى الكفر طوقا فى أعناقهم .. »(١)

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قال البخارى قوله : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ... » حدثنا على بن عبد الله . حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، سمع ابن عباس قال : هم كفار أهل مكة . .

ثم قال ابن كثير : وهذا هو الصحيح ، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار ، فإن الله — تعالى — بعث محمدا — صلى الله عليه وسلم — رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار ... »(٢)

وما ذهب إليه صاحب الكشاف وابن كثير — رحمهما الله — هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأن مشركى مكة ومن سار على مشاكلتهم ، تنطبق عليهم هذه الآية الكريمة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٦

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٢٦

وقد أورد بعض المفسرين هنا روايات فى أن المراد بهؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، بنو أمية وبنو مخزوم . . . ولكن هذه الروايات بعيدة عن الصواب ، ولا سند لها من النقل الصحيح[١] .

وقوله « وأحلوا قومهم دار البوار » معطوف على « بدلوا » لبيان رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة .

والمراد بقومهم : أتباعهم وشركاؤهم فى الكفر والعناد حتى ماتوا على ذلك ،

والبوار الهلاك والخسران ، ويطلق أيضا على الكساد . يقال : بار المتاع بوارا ، إذا كسد ، إذ الكاسد فى حكم الهالك .

والمعنى: ألم تر - أيها العاقل - إلى حال هؤلاء المشركين، الذين قابلوا نعم الله عليهم بالكفر والجحود ، وكانوا سببا فى إنزال قومهم دار الهلاك والخسران.

وقوله - سبحانه - « جهنم يصلونها وبئس القرار » بيان لدار بوارهم وهلاكهم أى : جهنم يصلون حرها وسعيرها ، وبئس القرار قرارهم فيها :

فقوله « جهنم » عطف بيان لدار البوار، وقوله « يصلونها » فى محل نصب حال من جهنم ، يقال : صلى فلان النار - من باب تعب - إذا ذاق حرها ، وتقول : صليت اللحم أصليه - من باب رمى - إذا شويته .

والمخصوص بالذم محذوف . أى : بئس القرار هى أى : جهنم .

وفيه إشارة إلى أن حلولهم فيها كائن على وجه الدوام والاستمرار .

ثم بين - سبحانه - لونا ثالثا من ألوان أعمالهم القبيحة ، وعقائدهم الباطلة فقال : « وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله .. »

والأنداد : جمع ند وهو مثل الشىء الذى يضاده وينافره ويتباعد عنه .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ١٤٦ .

وأصله من ند البعير يند ـ بكسر للنون ـ ندا ـ بالفتح ـ إذا نفر وذهب على وجهه شاردا .

وقوله « ليضلوا » قرأ الجمهور ـ بضم الياء ـ من أضل غيره إذا جعله ضالا .

أى أن هؤلاء الخاسرين لم يكتفوا بمقابله نعمة الله بالجحود ، وبإحلال قومهم دار البوار ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم جعلوا لله ـ تعالى ـ أمثالا ونظراء ، ليصرفوا غيرهم عن الطريق الحق ، والصراط المستقيم ، الذى هو إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « ليضلوا » ـ بفتح الياء ـ أى : ليستمروا فى ضلالهم ، فإنهم حين جعلهم الأنداد لله ـ تعالى ـ كانوا ضالين ، وجعلوا ذلك فاستمروا فى ضلالهم توهما منهم أنهم على الصواب .

قال صاحب الكشاف : قرىء « ليضلوا » بفتح الياء وضمها . فإن قلت : الضلال لم يكن غرضهم فى اتخاذ الأنداد فما معنى اللام ؟

قلت : لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد ، كما كان الإكرام فى قولك : جئتك لتكرمنى نتيجة المجىء ، دخلته اللام ، وإن لم يكن غرضا ، على طريق التشبيه والتقريب »[1] .

وقوله ـ سبحانه ـ « قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » أمر منه ـ عز وجل ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يهددهم بهذا المصير الأليم .

والتمتع بالشىء : الانتفاع به مع التلذذ والميل إليه .

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الخاسرين ، تمتعوا بما شئتم التمتع به من شهوات ولذائذ ، فإن مصيركم إلى النار لا محالة .

قال صاحب فتح القدير ما ملخصه : قوله « قل تمتعوا » بما أنتم فيه من

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٧٨ .

الشهوات ، وبمازينته لكم أنفسكم من كفران للنعم « فإن مصيركم إلى النار » أى مرجعكم إليها ليس إلا .

ولما كان هذا حالهم ، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه لايعقلون عنه . جعل - سبحانه - الأمر بمباشرته مكان النهى عن قربانه ، إيضاحا لما تكون عليه عاقبتهم ، وأنهم لامحالة صائرون إلى النار . .

فجملة « فإن مصيركم إلى النار » تعليل الأمر بالتمتع ، وفيه من التهديد مالا يقادر قدره .

ويجوز أن تكون هذه الجملة جوابا لمحذوف دل عليه السياق كأنه قيل : قل تمتعوا فإن دمتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار .

والأول أولى والنظم القرآنى عليه أدل ، وذلك كما يقال لمن يسعى فى مخالفة السلطان : اصنع ماشئت من المخالفة فإن مصيرك إلى السيف »[١] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار »[٢] .

وقوله - تعالى - : « نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ »[٣] .

وقوله - تعالى - « لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد »[٤] .

وبعد هذا الأمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بتهديد الكافرين ، وجه - سبحانه - أمرا آخر له - صلى الله عليه وسلم - طلب منه فيه ، مواصلة دعوة المؤمنين إلى الاستمرار فى التزود من العمل الصالح فقال

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ١٠٩ .

(٢) سورة الزمر الآية ٨ .   (٣) سورة لقمان الآية ٢٤ .

(٤) سورة آل عمران الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ .

- تعالى - : « قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال » .

قال الجمل : قوله « قل لعبادي ... أ لخ » مفعول قل محذوف يدل عليه جوابه ، أي : قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا . ، وقوله : يقيموا وينفقوا مجزومان في جواب الأمر ، أي : إن قلت لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا ... يقيموا وينفقوا ...

ويجوز أن يكون قوله « يقيموا وينفقوا » مجزومين بلام الأمر المقدرة، أي : ليقيموا الصلاة ولينفقوا ... »(١)

والمراد بإقامة الصلاة : المواظبة على أدائها في أوقاتها المحددة لها ، مع استيفائها لأركانها وسننها وآدابها وخشوعها ، ومع إخلاص النية عند أدائها لله - تعالى - .

والمراد بالإنفاق : مايشمل جميع وجوه الإنفاق الواجبة والمستحبة .

والمراد بقوله « سرا وعلانية » مايتناول عموم الأحوال في الحرص على على بذل المال في وجوهه المشروعة .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادي المخلصين ، الذين آمنوا إيمانا حقا ، قل لهم : ليستزيدوا من المواظبة على أداء الصلاة ، وعلى الإنفاق مما رزقناهم في جميع الأحوال ، بأن يجعلوا نفقتهم في السر إذا كانت آداب الدين وتعاليمه تقتضي ذلك ، وأن يجعلوها في العلن إذا كانت المنفعة في ذلك .

والإضافة في قوله « لعبادي » للتشريف والتكريم لهؤلاء العباد المخلصين.

ولم تعطف هذه الآية الكريمة على ماقبلها وهو قوله « قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » للإيذان بتباين حال الفريقين ، واختلاف شأنهما ...

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٥ .

ومفعول « ينفقوا » محذوف والتقدير ينفقوا شيئا مما رزقناهم ».

وعبر - سبحانه - بمن المفيدة للتبعيض في قوله « مما رزقناهم » للإشعار بأنهم قوم عقلاء يبتعدون في إنفاقهم عن الإسراف والتبذير ، عملا بقوله - تعالى - : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »[1].

وهذا التعبير - أيضا - يشعر بأن هذا المال الذي بين أيدي عباده - سبحانه - ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه ، ونعمة أنعم بها عليهم ، فعليهم أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر ، بأن ينفقوا جزءا منها في وجوه الخير .

وقوله « سرا وعلانية » منصوبان على الحال أي : مسرين ومعلنين ، أو على المصدر أي : إنفاق سر وإنفاق علانية .

وقدم - سبحانه - إنفاق السر على العلانية للتنبيه على أنه أولى الأمرين في معظم الأحوال لبعده عن خواطر الرياء ، ولأنه أستر للمتصدق عليه .

وقوله - سبحانه - « من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال » مؤكد لمضمون ما قبله من الأمر بإقامة الصلاة وبالإنفاق في وجوه الخير بدون تردد أو إبطاء .

ولفظ « خلال » مصدر خاللت بمعنى صاحبت وصادقت ، أو جمع خليل بمعنى صديق ، أو جمع خلة بمعنى الصداقة كقلة وقلال .

أي : قل لهم - أيها الرسول الكريم - بأن من الواجب عليهم أن يكثروا ويداوموا على إقام الصلاة وعلى الإنفاق مما رزقهم - سبحانه - ، من قبل أن يفاجئهم يوم القيامة ، ذلك اليوم الذي لا تقبل فيه المعاوضات ، ولا تنفع فيه شفاعة الصديق لصديقه ، وإنما الذي يقبل وينفع في هذا اليوم هو العمل الصالح الذي قدمه المسلم في دنياه .

فالجملة الكريمة تفيد حضا آخر على إقام الصلاة وعلى الانفاق عن طريق

(١) سورة الفرقان الآية ٦٧ .

التذكير للناس بهذا اليوم الذى تنتهى فيه الأعمال ، ولا يمكن فيه استدراك مافاتهم ، ولا تعويض مافقدوه من طاعات .

كما تفيد أن المواظبة على أداء هاتين الشعيرتين ، من أعظم القربات التى يتقرب بها المسلم إلى خالقه ـ سبحانه ، والتى تكون سببا فى رفع الدرجات يوم القيامة .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى ـ « يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون »[1] .

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ألوانا من نعمه التى تستوجب شكره وطاعته وإخلاص العبادة له والتى تدل على كمال قدرته وعلمه ووحدانيته فقال ـ تعالى ـ : « الله الذى خلق السموات والأرض ... »

أى : الله ـ تعالى ـ وحده هو الذى أوجد السموات والأرض ومافيهما من أجرام علويه وسفليه بدون مثال سابق .

وأفتتحت الآية الكريمة بلفظ الجلالة، لما فى ذلك من تربية المهابة ، ومن لفت أنظار المشركين إلى ماهم فيه من ضلال حتى يقلعوا عنه .

وجاء الخبر بصيغة الموصول ، لأن الصلة معلومة الثبوت له ـ سبحانه ـ والمشركون لا ينازعون فى ذلك ، كما قال ـ تعالى ـ « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ... »

وقوله « وأنزل من السماء ماء فأخرج به الثمرات رزقالكم ... » بيان للون آخر من ألوان نعمه على خلقه .

والمراد بالسماء هنا : السحاب ، أوجهة العلو .

أى : وأنزل ـ سبحانه ـ من المزن أو السحاب « ماء » كثيرا هو المطر ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٤ .

« فأخرج به » أى بذلك الماء « من الثمرات » المتعددة الأنواع والأصناف « رزقا لكم » تنتفعون به ، وتتمتعون بجمال منظره وطيب مطعمه .

ثم حكى - سبحانه - ألوانا أخرى من نعمه فقال : « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار » .

وقوله « سخر » من التسخير بمعنى التذليل والتطويع والقدرة على التصرف فى الشىء والانتفاع به .

والفلك : ماعظم من السفن ، ويستعمل لفظه فى الواحد والجمع ، والظاهر أن المراد به هنا الجمع لقوله - سبحانه - « لتجرى » بتاء التأنيث .

أى : « وسخر لكم » - سبحانه - السفن الضخمة العظيمة ، بأن ألهمكم صنعها ، وأقدركم على استعمالها « لتجرى فى البحر » إلى حيث تريدون « بأمره » وإذنه ومشيئته ، لا بإذنكم ومشيئتكم ، إذ لو شاء - سبحانه - لقلبها بكم .

« وسخر لكم الأنهار » بأن جعلها معدة لانتفاعكم ، إذ منها تشربون ، ومنها تسقون دوابكم وزروعكم ، وعليها تسيرون بسفنكم إلى حيث تريدون .

« وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » أى : دائمين فى إصلاح ما يصلحان من الأبدان والنبات وغيرهما . أو دائمين فى مدارهما المقدر لهما بدون اضطراب أو اختلال . ولا يفتران عن ذلك مادامت الدنيا .

وأصل الدأب : الدوام والعادة المستمرة على حالة واحدة . يقال : دأب فلان على كذا يدأب دأبا ، إذا داوم عليه وجد فيه .

« وسخر لكم الليل والنهار » بأن جعلهما متعاقبين ، يأتى أحدهما فى أعقاب الآخر ، فتنتفعون بكل منهما بما يصلح أحوالكم .

فالليل تنتفعون به فى راحتكم ومنامكم . . والنهار تنتفعون به فى معاشكم وطلب رزقكم قال - تعالى - « وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا » .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه النعم بقوله « وآتاكم من كل ماسألتموه ... »

أى : وأعطاكم ـ فضلا عما تقدم من النعم ـ بعضا من جميع ماسألتموه إياه من نعم ، على حسب ماتقتضيه إرادته وحكمته التى لاتعلمونها كما قال ـ تعالى ـ: « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر مايشاء ، إنه بعباده خبير بصير »[1] .

قال الجمل ماملخصه : قوله « وآتاكم من كل ما سألتموه » أى : كل نوع أو كل صنف سألتموه أى : شأنكم أن تسألوه لاحتياجكم إليه ، وإن لم تسألوه بالفعل ...

وفى « من » قولان : أحدهما أنها زائدة فى المفعول الثانى أى : آتاكم كل ما سألتموه ...

والثانى أن تكون تبعيضيه أى : آتاكم بعض جميع ما سألتموه نظرا لكم ولمصالحكم ، وعلى هذا فالمفعول محذوف تقديره : وآتاكم شيئا من كل ماسألتموه ، وهو رأى سيبويه ... »[2]

وجملة « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » مؤكدة لمضمون ماقبلها .

أى : وإن تحاولوا عد نعم الله عليكم ، وتحاولوا تحديد هذا العدد ، لن تستطيعوا ذلك لكثرة هذه النعم ، وخفاء بعضه عليكم .

والإحصاء : ضبط العدد وتحديده ، مأخوذ من الحصا وهو صغار الحجارة ، لأن العرب كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للخطأ .

قال ابن كثير : يخبر ـ سبحانه ـ عن عجز العباد عن تعداد نعمه فضلا عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب ـ رحمه الله ـ : إن حق الله أثقل

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٦ .

من أن يقوم به العباد : «إن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين » .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول : لك الحمد غير مكفى - أى لم يكفه غيره بل هو - سبحانه - يكفى غيره - ولا مودع - أى متروك حمده - ، ولا مستغنى عنه ربنا - أى هو الذى يحتاج إليه الخلق - »[1] .

والمراد بالإنسان فى قوله « إن الإنسان لظلوم كفار » نوع معين منه وهو الكافر كما فى قوله - تعالى - « ويقول الإنسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا » .

أى إن الإنسان الكافر لشديد الظلم لنفسه بعبادته لغير الله - تعالى - ، ولشديد الجحود والكفران لنعمه - عز وجل .

ويرى بعضهم أن المراد بالإنسان هنا الجنس .

قال الشوكانى قوله - سبحانه - : « إن الإنسان لظلوم » أى لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه ، وظاهره شمول كل إنسان . وقال الزجاج : إن الإنسان هنا اسم جنس يقصد به الكافر خاصة ، كما فى قوله - تعالى - « والعصر إن الإنسان لفى خسر » « كفار » أى : شديد كفران نعم الله عليه ، جاحد لها غير شاكر لله عليها كما ينبغى ويجب عليه »[2] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ابتدأت ببيان سوء عاقبة الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وثنت بأمر النبى صلى الله عليه - وسلم - بأن يحض المؤمنين الصادقين على الاستزادة من أقامة الصلاة ومن الإنفاق فى سبيل الله ..

ثم ساقت عشر نعم تدل دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وعلمه

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٤ ص ٤٣٠

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى حـ ٣ ص ١٠٠ .

وقدرته . وهذه النعم هى خلق السموات والأرض ، وإنزال المطر من السماء ، وإخراج الثمرات به ، وتسخير الفلك فى البحار ، وتسخير الأنهار ، وتسخير الشمس والقمر دائبين ، وتسخير الليل والنهار .

ثم ختمت ببيان أنه - سبحانه - قد أعطى الناس - فضلا عن كل ذلك - جميع مايحتاجون إليه فى مصالحهم على حسب حكمته ومشيئته ، ولكن الناس - إلا من عصم الله - لايقابلون نعمه - سبحانه - بما تستحقه من شكر ، لشدة ظلمهم وكثرة جحودهم .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الدعوات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وهى دعوات تدل على شكره لخالقه ، وحسن صلته به ، ورجائه فى فضله .. فقال - تعالى - :

« وإذْ قال إبراهيمُ ربّ اجْعَلْ هذا البلدَ آمِناً ، واجنُبْنِي وبَنِيّ أن نعبدَ الأصنامَ (٣٥) ربّ إنّهُنَّ أضْلَلنَ كثيراً من الناسِ فمن تبعني فإنّه منّى ، ومَنْ عصانى فإنكَ غفورٌ رحيمٌ (٣٦) ربّنا إنّى أسْكنتُ من ذُرّيتى بوادٍ غير ذى زَرْعٍ عندَ بيتِكَ المحرمِ ، ربّنا ليقيمُوا الصلاةَ ، فاجْعَلْ أفئِدَةً من الناسِ تَهوِى إليهم وارزُقْهُم من الثمراتِ لعلّهم يشكُرون (٣٧) ربّنا إنّكَ تعلَمُ ما نخفِى وما نُعلِنُ وما يخفَى على اللهِ من شىءٍ فى الأرضِ ولا فى السماء (٣٨) الحمدُ للهِ الذى وهَبَ لى على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ إنّ ربِّى لسميعُ الدعاء (٣٩) ربِّ اجْعَلْنِي مقيمَ الصلاةِ ومِن ذُريتِى ربّنا وتقبّلْ دعاء (٤٠) ربّنا اغْفِرْ لى ولوالِدَىّ وللمؤمنينَ يومَ يقومُ الحسابُ (٤١) » .

هذه بعض الدعوات التى ابتهل بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وقد تقبلها الله - تعالى - منه قبولا حسنا .

وفى هذه الدعوات تنبيه لمشركى مكة الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، والذين جحدوا نعم الله عليهم ، بأن من الواجب عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يستجيبوا للدعوة الحق ، وأن يقتدوا بإبراهيم - عليه السلام - فى إيمانه وشكره لخالقه - سبحانه - .

و « إذ » ظرف لماضى من الزمان ، وهو منصوب على المفعولية لفعل محذوف .

و « رب » منادى بحرف نداء محذوف أى : يارب .

والمراد بالبلد : مكة المكرمة شرفها الله - تعالى - .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن قال إبراهيم مناديا ربه : يارب اجعل هذا البلد ذا أمن وسلام واستقرار .

وقدم إبراهيم - عليه السلام - فى دعائه نعمة الأمن على غيرها ، لأنها أعظم أنواع النعم ، ولأنها إذا فقدها الإنسان ، اضطرب فكره ، وصعب عليه أن يتفرغ لأمور الدين أو الدنيا بنفس مطمئنة ، وبقلب خال من المنغصات والمزعجات ...

قال الإمام الرازى : سئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة ؟ فقال : الأمن أفضل ، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان ، ولا يمنعها هذا الكسر من الإقبال على الرعى والأكل والشرب .

ولو أنها ربطت - وهى سليمة - فى موضع ، وربط بالقرب منها ذئب ، فإنها تمسك عن الأكل والشرب ، وقد تستمر على ذلك إلى أن تموت .

وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف ، أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد »(1) .

---

(1) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١٢٥ .

وقال الإمام ابن كثير مالملخصه : يذكر الله ـ تعالى ـ في هذا المقام ـ ـ محتجا على مشركى مكة الذين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ـ بأن مكة إنما وضعت أول ماوضعت على عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، وأن إبراهيم قد تبرأ ممن عبد غير الله . وأنه دعا لمكة بالأمن وقد استجاب الله له فقال ـ تعالى ـ : « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ... » وقال ـ تعالى ـ « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ... »[١]

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين قوله ـ تعالى في سورة البقرة « رب اجعل هذا بلدا آمنا ... »[٢] وبين قوله هنا « رب اجعل هذا البلد آمنا ... » ؟

قلت : قد سأل فى الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون . وسأل فى الثانى أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمنا ... »[٣]

وقوله ـ سبحانه ـ « وأجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » حكاية لدعوة أخرى من الدعوات التى تضرع بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى خالقه ـ سبحانه ـ .

وقوله « واجنبنى » بمعنى وأبعدنى مأخوذ من قولك جنبت فلانا عن كذا، إذا أبعدته عنه ، وجعلته فى جانب آخر ، وفعله جنب من باب نصر .

والمراد ببنيه : أولاده من صلبه ، أوهم ومن تناسل معهم .

والأصنام جمع صنم ، وهو التمثال الذى كان مشركو العرب يصنعونه من الحجر ونحوه لكى يعبدوه من دون الله ـ تعالى .

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٤ ص ٤٣١ .
(٢) الآية ١٢٦ .
(٣) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٣٧٩ .

والمعنى : أسألك يارب أن تجعل مكة بلدا آمنا ، كما أسألك أن تعصمنى وتعصم ذريتى من بعدى من عبادة الأصنام ، وأن تجعل عبادتنا خالصة لوجهك الكريم .

وقد بين ـ سبحانه ـ فى آيات أخرى ، أنه قد أجابه فى بعض ذريته دون بعض .

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ « سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين »[1] .

وقوله : « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ... » تعليل لسؤال إبراهيم ربه أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام .

أى : يارب لقد تضرعت إليك بأن تعصمنى وبنى عن عبادة الأصنام ، لأنها كانت سببا فى إضلال كثير من الناس عن اتباع الحق ، وعن الهداية إلى الصراط المستقيم .

وأسند الإضلال إليها مع أنها جمادات لا تعقل ، لأنها كانت سببا فى إضلال كثير من الناس ، فكأنها أضلتها ، فنسبة الاضلال إليها مجازية من باب نسبة الشىء إلى سببه ، كما يقال : فلان فتنته الدنيا وأضلته ، وهو إنما فتن وضل بسببها .

وقوله ـ سبحانه ـ « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » بيان لموقفه ـ عليه السلام ـ من المهتدين والضالين .

أى : فمن تبعنى من الناس فى دينى وعقيدتى ، فإنه يصير بهذا الإتباع من أهل دينى وهو دين الإسلام ، ومن عصانى ولم يقبل الدخول فى الدين الحق ، فإنى أفوض أمره إليك ، فأنت ـ سبحانك ـ لا تسأل عما تفعل وغيرك يسأل .

(١) سورة الصافات الآيات من ١٠٩ — ١١٣ .

فالجملة الكريمة تدل على الأدب السامى ، والخلق العالى ، الذى كان يتحلى به إبراهيم - عليه السلام - فى مخاطبته لربه - عز وجل - حيث فوض الأمور إليه دون أن يقطع فيها برأى ، كما تدل على رقة قلبه وشفقته على العصاة من الوقوع فى العذاب الأليم .

وشبيه بهذه الآية ما حكاه - سبحانه - عن عيسى - عليه السلام - فى قوله : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »[1] .

هذا ، ولا نرى وجها لما ذهب إليه بعض المفسرين ، من أن قول إبراهيم - عليه السلام - « ومن عصانى فإنك غفور رحيم » كان قبل أن يعلم بأن الله لا يغفر الشرك أو أن المراد بالمعصية هنا مادون الشرك ، أو أن المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك ... »[2] .

نقول : لا نرى وجها لكل ذلك ، لأن الجملة الكريمة ليس المقصود بها الدعاء بالمغفرة لمن عصى ، وإنما المقصود بها تفويض أمر العصاة إلى الله - تعالى - إن شاء غفر لهم ورحمهم . وإن شاء عذبهم .

ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الأدعية التى تضرع بها إبراهيم إليه - تعالى - فقال : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة . . . »

و « من » فى قوله « من ذريتى » للتبعيض .

والوادى : هو المكان المنخفض بين مرتفعات ، والمقصود به وادى مكة المكرمة .

والمعنى : يا ربنا إنى أسكنت بعض ذريتى وهو ابنى إسماعيل ومن سيولد له ، بواد غير زرع قريبا من بيتك المحرم ، أى : الذى حرمت التعرض له

---

(١) سورة المائدة الآيه ١١٨

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ٢١١

بسوء توقيرا وتعظيما ، والذى جعلته مثابة للناس وأمنا ، وفضيلته على غيره من الأماكن .

وقوله «ربنا ليقيموا الصلاة» بيان للباعث الذى دفعه لإسكان بعض ذريته فى هذا المكان الطيب .

أى : ياربنا إنى أسكنتهم بهذا المكان ليتفرغوا لإقامة الصلاة فى جوار بيتك ، وليعمروه بذكرك وطاعتك .

فاللام فى قوله « ليقيموا » للتعليل وهى متعلقة بأسكنت .

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لمزيد فضلها ، ولكمال العناية بشأنها . .

قال القرطبى : تضمنت هـــذه الآيه أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ، لأن معنى « ربنا ليقيموا الصلاة » أى : أسكنتهم عنـد بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه .

وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمائة صلاة ، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة » . . .

وقد روى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ حديث ابن الزبير »[1] .

وقوله « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » دعاء جامع لمطالب الدين والدنيا ، لأن الناس يذهبون إلى البيت

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ٩ ص ٢٧١

الحرام للتقرب إلى الله - تعالى - ، وليتبادلوا المنافع عن طريق التجارة وغيرها مع السكان المجاورين لهذا البيت المعمور .

والأفئدة : جمع فؤاد . والمراد بها القلوب والنفوس .

والمراد بالناس فى قوله «من الناس» المؤمنون منهم، لأنهم هم الذين يذهبون إلى البيت الحرام ، ليشهدوا منافع لهم ، وليتقربوا إليه - سبحانه - بحج بيته :

وتهوى إليهم : أى تسرع إليهم . يقال : هوى - بفتح الواو - يهوى - بكسرها - إذا أسرع فى السير ، ومنه قولهم : هوت الناقة تهوى هويا ، إذا عدت عدوا شديدا ...

والأصل فيه أن يتعدى باللام ، وعدى هنا بإلى لتضمنه معنى تميل وتسرع .

أى ياربنا إنى تركت بعض ذريتى فى جوار بيتك ، فأسألك يا إلهى أن أن تجعل نفوس الناس وقلوبهم تحن إلى هذا المكان ، وتطير فرحا إليـه ، وارزق من تركتهم وديعة فى جوار بيتك من الثمرات المختلفة مايغنيهم ويشبعهم لعلهم بهذا العطاء الجزيل يزدادون شكرا لك، ومسارعة فى طاعتك وعبادتك .

وقال - سبحانه - « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ولم يقل فاجعل الناس تهوى إليهم، للإشاره إلى أن سعى الناس إليهم يكون عن شوق ومحبة حتى لكأن المسرع إلى هـــذا الجوار الطيب هو القلب والروح وليس الجسد وحده .

قال صاحب الكشاف ماملخصه : وقد أجاب الله - تعالى - دعوة إبراهيم - عليه السلام - فجعل البيت الحرام حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنه ، ثم فضله فى وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا ، وفى أى بلد من من الشرق والغرب ، ترى الأعجوبة التى يريكها الله بواد غير ذى زرع - ، وهى إجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد ، وليس ذلك من آياته

عجيب ، متعنا الله بسكنى حرمه ، ووفقنا لشكر نعمه وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم،ورزقنا طرفا من سلامةذلك القلب السليم »[1] .

هذا ، وقد ساق الإمام الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية قصة إسكان إبراهيم لبعض ذريته فى هذا المكان فقال ماملخصه : وهذا الإسكان إنما كان بعد أن حدث ماحدث بين إبراهيم وبين زوجه ساره . وذلك أن هاجر أم إسماعيل كانت أمة من القبط لسارة . فوهبتها لإبراهيم عليه السلام ـ فتزوجها فولدت له إسماعيل . فدبت الغيرة فى قلب سارة ولم تصبر على بقائهما معها فأخرج إبرهيم ـ عليه السلام ـ هاجر وإبنها إلى أرض مكة ، فوضعهما عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء . ثم قفى منطلقا فتبعته هاجر ، فقالت له : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس .

قالت له ذلك مرارا وهو لايلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت : إذا لايضيعنا ، ثم رجعت .

وأنطلق إبراهيم ـ عليه السلام ـ حتى إذا كان عند الثنية حيث لايرونه، أستقبل بوجهه البيت ـ وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية ـ ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : رب إنى أسكنت من ذريتى بواد غيرذى زرع ..... الآية .

ثم إنها جعلت ترضع ابنها وتشرب مما فى السقاء حتى إذا نفذ ما فى السقاء ، عطشت وعطش ابنها،وجعلت تنظر إليه يتلبط ـ أى يتلوى ويتمرغ ـ من شدة العطش ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه، ثم أستقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا، فلم

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٩

تر أحدا ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ولذلك سعى الناس بينهما سبعا .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه! تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا صوتا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم . فبحث بعقبه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتغرف من فى سقائها وهو يفور ، فشربت وأرضعت ولدها ، وقال لها الملك : لاتخافى الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله - تعالى - يبنيه هذا الغـــلام وأبوه ، وإن الله - تعالى - لن يضيع أهله ...

ثم إنه مرت بهما رفقة من جرهم ، فرأوا طائرا عائفا - أى يتردد على الماء ولا يمضى - فقالوا : لاطير إلا على الماء ، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا بالماء ، فأتاهم فقصدوه وأم إسماعيل عنده ، فقالوا : أشركينا فى مائك نشركك فى ألبانا ، ففعلت ، فلما أدرك إسماعيل - عليه السلام - زوجوه امرأة منهم»(١).

ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الدعوات الخاشعة التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال : « ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » .

أى : ياربنا إنك وحدك العليم بما تخفيه نفوسنا من أسرار ، وما تعلنه وتظهره من أقوال ، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليك سواء ، فأنت يا إلهى لا يخفى عليك شىء من الأشياء ، سواء أكان هذا الشىء فى الأرض أم فى السماء أم فى غيرهما .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ٢١٢ وراجع صحيح البخارى تجد فيه حديثا طويلا فى هذا الموضوع .

وإنما ذكر السماء والأرض لأنها المشاهدتان للناس، وإلا فعلمه ـ سبحانه ـ محيط بكل مافى هذا الكون .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ماقاله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى مقام شكره لله على نعمه فقال ـ تعالى ـ : الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء » .

والحمد : هو الثناء باللسان على من صدرت منه النعمة، وأل فيه للاستغراق أى : جميع أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين ؛ لأن كل مايستحق أن يقابل بالثناء والحمد فهو صادر عنه ـ سبحانه ـ إذ هو الخالق لكل شىء .

وعلى فى قوله « على الكبر » للاستعلاء المجازى وهى بمعنى مع . أى وهب لى مع الكبر الذى لاتحصل معه فى الغالب ولادة . . .

وإسماعيل هو الابن الأكبر لإبراهيم، وقد رزقه الله به من زوجه هاجر كما سبق أن أشرنا ـ ، أما إسحاق فكان أصغر من إسماعيل ، وقد رزقه الله به من زوجه ساره .

قال الفخر الرازى : أعلم أن القرآن يدل على أنه ـ تعالى ـ إنما أعطى إبراهيم ـ عليه السلام ـ هذين الولدين على الكبر والشيخوخة ، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن ، وإنما يرجع فيه إلى الروايات . فقيل لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعا وتسعين سنة ، ولما ولد إسحاق كان سنه مائة وإثنى عشرة سنة . .

وإنما ذكر قوله « على الكبر » لأن المنة بهبة الولد فى هذا السن أعظم ، من حيث إن هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة ، والظفر بالحاجة فى وقت اليأس من أعظم النعم ، ولأن الولادة فى هذه السن المتقدمة كانت آيه لإبراهيم » [1] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ح ١٩ ص ١٣٨

وجملة « إن ربى لسميع الدعاء » تعليل لجمله « وهب لى على الكبر » أى : وهب لى على الكبر هذين الولدين ، لأنه - سبحانه - سمع دعائى وتقبله ، وأجاب طلبى دون أن يخيبنى .

فالسميع هنا مستعمل على سبيل المجاز فى أجابة المطلوب ، ومنه قول القائل : سمع الملك كلام فلان ، إذا اعتد به وقبله وعمل بمقتضاه . وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول . أى: إن ربى يسمع دعائى ويجيبه.

ثم ختم إبراهيم - عليه السلام - تلك الدعوات الطيبات التى تضرع بها إلى ربه ، بما حكاه الله عنه فى قوله : « رب أجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء . ربنا أغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب».

أى : يارب اجعلنى من عبادك الذين يؤدون الصلاة فى أوقاتها بإخلاص وخشوع ، وأجعل من ذريتى من يقتدى بى فى ذلك ، كما أسألك يارب أن تتقبل دعائى ولا تخيبنى فى مطلوب أسألك إياه .

كما أسألك - ياإلهى - أن تغفر لى ذنوبى ، وأن تغفر لوالدى وللمؤمنين ، يوم يقوم الناس للحساب ، فتجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وإنما طلب إبراهيم لوالديه المغفرة ، قبل أن يتبين له أن والده عدو لله ، فلما تبين له ذلك تبرأ منه .

قال - تعالى - « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه »[1] .

أما أمه فقال بعضهم إنها كانت مؤمنة ، وقال آخرون لعلها توفيت قبل نبوته .

وبعد أن حكى - سبحانه - تلك الدعوات الطيبات التى تضرع بها إبراهيم

(١) سورة التوبة الآية ١١٤

إلى ربه ، والتى تضمنت أمهات الفضائل ، كسلامة القلب ، وطهارة النفس ، ورقة العاطفة ، وحسن المراقبة ، وحب الخير لغيره . . .

بعد كل ذلك حكى ـ سبحانه ـ أحوال الظالمين يوم القيامة ، وأقوالهم فى ذلك اليوم الشديد ، ورده ـ تعالى ـ عليهم ، والأسباب التى أدت إلى خسرانهم . . . . فقال ـ تعالى ـ :

« ولا تحسبَنَّ اللهَ غافِلاً عما يعملُ الظالمونَ ، إنما يؤخرُهم ليومٍ تشخَصُ فيه الأبصارُ (٤٢) مُهطِعِينَ مُقْنِعِى رءوسِهم ، لا يرتدّ إليهم طَرْفُهم وأفئدتُهم هواءٌ (٤٣) وأَنذِرِ الناسَ يومَ يأتيهِمُ العذابُ فيقولُ الذينَ ظلمُوا ربَّنا أخِّرنَا إلَى أَجلٍ قريبٍ نُجِبْ دعوتَك ونتَّبِعِ الرسُل أو لم تكونُوا أقسمتُم من قبلُ ما لكُم من زوالٍ (٤٤) وسكنتُم فى مساكِنِ الذينَ ظلمُوا أنفُسَهم وتبينَ لكُم كيفَ فعلنَا بهِم وضرَبْنَا لكم الأمثالَ (٤٥) وقد مكرُوا مكرَهم، وعند اللهِ مكرُهم، وإن كانَ مكرُهُم لتزولَ منه الجبالُ (٤٦) فلا تحسَبَنَّ اللهَ مُخلِفَ وعْدِه رسُله ، إن اللهَ عزيزٌ ذُو انتقامٍ (٤٧) يومَ تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتِ ، وبرَزُوا للهِ الواحدِ القهارِ (٤٨) وترَى المجرمينَ يومَئِذٍ مقرَّنينَ فى الأصفادِ (٤٩) سرابيلُهم من قَطِرَانٍ وتغشَى وجوهَهم النارُ (٥٠) ليجزِىَ اللهُ كلَّ نفسٍ ما كسَبتْ إنّ اللهَ سريعُ الحساب (٥١) هذَا بلاغٌ للناسِ ولِيُنذَروا به ، وليعلَموا أنما هو إلهٌ واحدٌ ، وليذكَّرَ أولُوا الألباب (٥٢) » .

قال الإمام القرطبي : قوله ـ تعالى ـ « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل

الظالمون ... » وهذا تسلية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن عجبه من أفعال المشركين ، ومخالفتهم دين إبراهيم ، أى : أصبر كما صبر إبراهيم ، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم ،وتعزية للمظلوم »[1] .

والخطاب فى « ولا تحسبن ... » يجوز أن يكون للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقصد زيادة تثبيته على الحق ، ودوامه على ذلك ، ويجوز أن يكون لكل من يصلح للخطاب .

والغفلة : سهو يعترى الإنسان بسبب قلة تيقظه وانتباهه ، ولاشك أن ذلك محال فى فى حق الله ـ تعالى ـ ، لذا وجب حمل المعنى على أن المراد بالغفلة هنا : ترك عقاب المجرمين .

والمراد بالظالمين : كل من انحرفوا عن طريق الحق ، واتبعوا طريق الباطل ، ويدخل فيهم دخولا أوليا مشركو مكة ، الذين أبوا الدخول فى الإسلام الذى جاءهم به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقوله « إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » استئناف وقع تعليلا للنهى السابق .

وقوله « تشخص » من الشخوص بمعنى رفع البصر بدون تحرك . يقال : شخص بصر فلان ـــ من باب خضع ـــ فهو شاخص ، إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف من شدة الخوف والفزع .

والمعنى : ولا تحسبن ـــ أيها الرسول الكريم ـــ أن الله تعالى ـــ تارك عقاب هؤلاء الظالمين ، الذين كذبوك فى دعوتك ، كلا لن يترك الله ـ تعالى ـ عقابهم ، وإنما يؤخره ليوم هائل شديد ، هو يوم القيامة الذى ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، فلا تطرف أجفانهم من هول ما يرونه .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٩ ص ٢٧٦

ثم بين — سبحانه — بعض أحوال هؤلاء الظالمين فى هذا اليوم العظيم، فقال - تعالى - : «مهطعين مقنعي رؤوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، وأفئدتهم هواء».

والإهطاع: السير السريع. يقال: أهطع فلان فى مشيه فهو يهطع إهطاعا إذا أسرع فى سيره بذلة واضطراب.

و «مقنعى رءوسهم» أى رافعيها، يقال: أقنع فلان رأسه، إذا نصبه ورفعه دون أن يلتفت يمينا أو شمالا. وقيل، إقناع الرءوس طأطأتها وانتكاسها

والأفئدة: جمع فؤاد، والمراد بها القلوب.

والمعنى: أن هؤلاء الظالمين يخرجون من قبورهم فى هذا اليوم مسرعين إلى الداعى بذلة واستكانة، كإسراع الأسير الخائف، رافعى رءوسهم إلى السماء مع إدامة النظر بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شىء.

«لا يرتد إليهم طرفهم» أى: لا تتحرك أجفان عيونهم، بل تبقى مفتوحة بدون حراك لهول ما يشاهدونه فى هذا اليوم العصيب.

«وأفئدتهم هواء» أى: وقلوبهم فارغة خالية عن الفهم، بحيث لا تعى شيئا من شدة الفزع والدهشة. ومنه قولهم فى شأن الأحمق والجبان. قلبهما هواء، أى لا رأى فيه ولا قوة.

وأفرد هواء وإن كان خبرا عن جمع لأنه فى معنى فارغة أو خالية.

قال - تعالى - «وأصبح فؤاد أم موسى فارغا..» أى خاليا من كل شىء إلا من التفكير فى شأن مصير ابنها موسى — عليه السلام،

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء الظالمين فى هاتين الآيتين بجملة من الصفات الدالة على فزعهم وحيرتهم.

وصفهم أولا بشخوص الأبصار، ووصفهم ثانيا بالإسراع إلى الداعى

فى ذلة وانكسار، ووصفهم ثالثا برفع رءوسهم فى حيرة واضطراب، ووصفهم رابعا: بانفتاح عيونهم دون أن تطرف من شدة الوجل، ووصفهم خامسا بخلو قلوبهم من إدراك أي شيء بسبب ما اعتراهم من دهشة ورعب.

وقوله - سبحانه - : «وأفئدتهم هواء» من باب التشبيه البليغ الذى حذفت فيه الأداة، والتقدير. وقلوبهم كالهواء فى الخلو من الإدراك من شدة الهول

ثم أمر الله تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يحذر الناس من أهوال هذا اليوم، وأن يقدموا العمل الصالح الذى ينفعهم فقال - تعالى - : وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ....

والإنذار: التخويف من ارتكاب شيء تسوء عاقبته.

والمراد بالناس: جميعهم، وقيل المراد بهم الكفار. ويبدو أن الأولى أرجح لأن الإنذار كما يكون للمؤمن يكون للكافر، إلا أن المؤمن يستجيب للنصح فينجو من العقاب، والكافر لا يستجيب فيحل عليه العذاب.

والمعنى: وخوف - أيها الرسول الكريم - الناس من أهوال يوم القيامة، ومرهم بأن يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح، من قبل أن يحل عذابه بالظالمين منهم فيقولون: يا ربنا أعدنا إلى الحياة مرة أخرى، وأخر أعمارنا وحسابنا إلى وقت قريب، حتى نستطيع فيه أن نستجيب لدعوتك التى تأمرنا بإخلاص العبادة لك، وأن نتبع رسلك فى كل ما أمرونا به ونتدارك مافرطنا فيه من أعمال الدنيا ...

قال الجمل: وقوله: «يوم يأتيهم العذاب ...» مفعول ثان لأنذر على حذف المضاف، أى: أنذرهم أهواله وعظائمه، فهو مفعول به لا مفعول فيه، إذ لا إنذار فى ذلك اليوم، وإنما الإنذار يقع فى الدنيا ...»(1).

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٣.

وإنما اقتصر — سبحانه — على ذكر إتيان العذاب فى هذا اليوم ، مع كون الثواب يحصل فيه - أيضا ، لأن المقام مقام تهديد وزجر، فكان من المناسب ذكر أهواله وشدائده .

وجمع لفظ الرسل فقال : « نجب دعوتك ونتبع الرسل » للإشارة إلى أن الرسل جميعا قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وأصولها ، وهى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

وفى معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون »[1] .

وقوله - تعالى - : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون »[2] .

وجملة « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال » مقول لقول محذوف .

والزوال : الانتقال من مكان إلى آخر ، أو من حال إلى حال ، والمراد به هنا : انتقالهم من قبورهم إلى الحساب يوم القيامة.

والمعنى : أن هؤلاء الظالمين عندما يقولون يا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل .

يقال لهم من قبل الله والملائكة على سبيل التوبيخ والتبكيت: أولم تكونوا - أيها الظالمون - تقسمون بالإيمان المغلظة فى الدنيا ، بأنكم بعد موتكم ستبقون فى قبوركم إلى أن تبلى أجسادكم ، وأنه ليس بعد ذلك من بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب .

قال - تعالى - « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . . »[3]

---

(١) سورة المؤمنون . الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) سورة السجدة : الآية ١٧ .

(٣) سورة النحل الآية ٣٨ .

فالجملة الكريمة تعنى رفض مطالبهم بأبلغ أسلوب، حتى يزدادوا حزنا على حزنهم . وحسرة على حسرتهم .

وجملة « ما لكم من زوال » جواب القسم .

وقوله - سبحانه - : « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ... » معطوف على « أقسمتم .... » .

والمراد بالسكنى : الحلول فى أماكن الظالمين لوقت يكفى للاتعاظ والاعتبار وكفار قريش كانوا يمرون بديار قوم ثمود فى رحلتهم إلى الشام ، وكانوا يحطون رحالهم هناك كما كانوا يمرون على ديار قوم عاد فى رحلتهم إلى اليمن .

والمعنى : لقد أقسمتم - أيها الضالون - بأنكم مالكم من إنتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، وحللتم فى مساكن القوم الظالمين .

« وتبين لكم » عن طريق المشاهدة وتواتر الأخبار .

« كيف فعلنا بهم » من الإهلاك والتدمير بسبب كفرهم وفسوقهم .

« وضربنا لكم الأمثال » بما فعلوه وبما فعلناه بهم ، عن طريق كتابنا . وعلى لسان رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وكان من الواجب عليكم بعد كل ذلك أن تعتبروا وتتعظوا وتثوبوا إلى رشدكم ، وتدخلوا فى الإسلام ، ولكنكم كنتم قوما فاسقين ، سائرين على نهج هؤلاء المهلكين فى الكفر والفجور ، فاليوم ذوقوا العذاب بسبب جحودكم للحق فى الدنيا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « أى : قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم .

قال - تعالى - « حكمة بالغة فما تغنى النذر »[1]

---

(1) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٣٤ .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك لونا آخر من ألوان نزاقتهم فى الكفر والجحود فقال . وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم . . »

والمكر : تبييت فعل السوء بالغير وإضماره ، مع إظهار ما يخالف ذلك .

وانتصب « مكرهم » الأول على أنه مفعول مطلق لمكروا ، لبيان النوع ، والإضافة فيه من إضافة المصدر لفاعله .

أى : أن هؤلاء الظالمين جاءتهم العبر فلم يعتبروا ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم مكروا بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق ، وإحقاق الباطل ، والذى كان من مظاهره محاولتهم قتل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقوله (وعند الله مكرهم) أى : وفى علم الله ـ تعالى ـ الذى لا يغيب عنه شىء مكرهم ، وسيجازيهم عليه بما يستحقونه من عذاب مهين .

وقوله ـ تعالى ـ (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) قرأ الجمهور (لتزول) ـ بكسر اللام على أنها لام الجحود والفعل منصوب بعدها ، بأن مضمرة وجوبا ، و(إن) فى قوله (وإن كان مكرهم) نافيه بمعنى ما .

والمعنى : ولقد مكر هؤلاء الكافرون مكرهم الشديد الذى اشتهروا به ، وفى علم الله ـ تعالى ـ مكرهم ، وما كان مكرهم ـ مهما عظم واشتد ـ لتنتقل منه الجبال عن أماكنها ، لأنه لم يتجاوز مكر أمثالهم ممن دمرناهم تدميرا .

وعلى هذه القراءة يكون المقصود بهذه الجملة الكريمة ، الاستخفاف بهم وبمكرهم، وبيان أن ما يضمرونه من سوء ليس خافيا على الله ـ تعالى ـ، ولن يزلزل المؤمنين فى عقيدتهم ، لأن إيمانهم كالجبال الرواسى فى ثباته ورسوخه .

وقرأ (الكسائى) (لتزول) ـ بفتح اللام على أنها لام الابتداء ، ورفع الفعل بعدها ـ و(إن) مخففة من الثقيلة .

فيكون المعنى : وقد مكروا مكرهم ، وعند الله مكرهم ، وإن مكرهم من

الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها ، لو كان لها أن تزول أو تنقلع .

وعلى هذه القراءة يكون المراد بهذه الجملة الكريمة التعظيم والتهويل من شأن مكرهم ، وأنه أمر شنيع أو شديد في بابه ، كما في قوله - تعالى - : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدًّا ...)[1]

وقوله : سبحانه - : (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ...) تفريع على ما تقدم من قوله - تعالى - (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ...) وتأكيد لتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولتثبيت يقينه .

وقوله (مخلف) اسم فاعل من الإخلاف ، بمعنى عدم الوفاء بالوعد وهو مفعول ثان لتحسب والمراد بالوعد هنا : ما وعد الله - تعالى - به أنبياءه ورسله من نصره إياهم ، ومن جعل العاقبة لهم .

قال - تعالى - (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا . ويوم يقوم الأشهاد)[2] .

وقال - تعالى - (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز)[3] .

والمعنى : لقد وعدناك - أيها الرسول الكريم - بعذاب الظالمين ، وأخبرناك بجانب من العذاب الذي سيحل بهم يوم القيامة ، ومادام الأمر كذلك فاثبت على الحق أنت وأتباعك ، وثق بأن الله - تعالى - لن يخلف ما وعدك به من نصر على أعدائك .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل مخلف رسله وعده ، ولم قدم المفعول الثاني - لمخلف وهو : وعده - على المفعول الأول - وهو رسله - ؟

(١) سورة مريم الآيات ٨٨ — ٩٠ .

(٢) سورة غافر الآية ٥١ (٣) سورة المجادلة الآية ٢١ .

قلت : قدم الوعد ليعلم أنه ـ سبحانه ـ لايخلف الوعد أصـــلا ، كقوله ـ تعالى ـ (إن الله لايخلف الميعاد) .

ثم قال (رسله) ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا ، وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، فكيف يخلفه مع رسله الذين هم خيرته وصفوته من خلقه . . ؟(١)

ويرى صاحب الانتصاف أن تقديم المفعول الثانى هنا ، إنما هو للإيذان بالعناية به ، لأن الآية فى سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله ـ تعالى ـ به على ألسنة رسله ، فكان المهم فى هذه الحال تقديم ذكر الوعيد على غيره (٢).

وقوله ـ سبحانه ـ « إن الله عزيز ذو إنتقام » تعليل للنهى عن الحسبان المذكور .

والعزيز : الغالب على كل شىء .

أى : إن الله ـ تعالى ـ غالب على كل شىء ، وذو إنتقام شديد من أعدائه لأنهم تحت قدرته ، ومادام الأمر كذلك فإخلاف الوعد منتف فى حقه ـ تعالى ـ .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك بعض العلامات التى تدل على قرب قيام الساعة فقال ـ تعالى ـ : « يوم تبدل الأرض غـــير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » .

والظرف « يوم » متعلق بمحذوف تقديره أذكر .

وقوله « تبدل » من التبديل بمعنى التغيير ، وهذا التغيير والتبديل لهما قد يكون فى ذواتهما كما فى قوله ـ تعالى ـ « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . . . »(٣)

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٤ :

(٢) حاشية الانتصاف على الكشاف ح ٢ ص ٣٨٤ .

(٣) سورة النساء الآية ٥٦ .

وقد يكون فى صفاتهما كقولك « بدلت الحلقة خاتما » وقد يكون فيهما معا وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لهذه الآية الكريمة فقال ... : وقال الإمام أحمد ، حدثنا محمد بن عدى ، عن داود ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن هذه الآية « يوم تبدل الأرض ... » قالت: قلت: أين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال : على الصراط ...

وفى رواية أنه — صلى الله عليه وسلم — قال لها : لقد سألتنى عن شيء ماسألنى عنه أحد من أمتى، ذاك أن الناس - يومئذ يكونون - على جسر جهنم »[1].

والمعنى : أذكر — أيها العاقل — لتتعظ وتعتبر يوم يتغير هذا العالم المعهود بعالم آخر جديد ، يأتى به الله — تعالى — على حسب إرادته ومشيئته ويوم يخرج الخلائق جميعا من قبورهم ليستوفوا جزاءهم ، وليجازوا على أعمالهم ، من الله — تعالى — الواحد الأحد ، الذى قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب ،

وختمت الآية الكريمة بهذين الوصفين لله — تعالى — ، للرد على المشركين الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى يشركونها معه فى العبادة ، ويتوهمون أن هذه الآلهة سوف تدافع عنهم يوم القيامة .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك ماسيحل بالمجرمين يوم القيامة من عذاب عنيف مهين يناسب إجرامهم وكفرهم فقال : « وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » .

وقوله « مقرنين » جمع مقرن ، وهو من جمع مع غيره فى قرن ووثاق واحد يربطان به .

والأصفاد : جمع صفد - بفتح الفاء - وهو القيد الذى يوضع فى الرجل ، أو الغل — بضم الغين — الذى تضم به اليد والرجل إلى العنق .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٣٧ .

والسرابيل : جمع سربال وهو القميص .

والقطران : مادة حارة نتنة شديدة الاشتعال تصلى بها جلود الإبل الجربى، ليزول الجرب منها .

أى : وترى - أيها العاقل - المجرمين فى هذا اليوم العسير عليهم « مقرنين فى الأصفاد » أى : قد قرن بعضهم مع بعض ، وضم كل قرين إلى من يشبهه فى الكفر وفى الفسوق وفى العصيان، وقد قيدوا جميعا بالأصفاد والقيود والأغـــلال .

قال - تعالى - « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم . . . »(١) أى : وأمثالهم من العصاة ، فعابد الصنم يكون مع عابد الصنم، وشارب الخمر مع شارب الخمر .

ويصح أن يكون اقترانهم مع الشياطين كما قال - تعالى - «فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا »(٢) .

هذا عن مشهد المجرمين وهم مقرنون فى الأصفاد ، وهو مشهد مهين مذل ولكنه ليس كافيا فى عقابهم ، بل يضاف إليه أن ملابسهم من قطران ، ليجتمع لهم لذعه ، وقبح لونه ، ونتن ريحه ، وسرعة اشتعاله ، وفوق كل ذلك فإن وجوههم تعلوها وتحيط بها النار التى تستعر بأجسادهم المسربلة بالقطران .

وخص - سبحانه - الوجوه بغشيان النار لها، لكونها أعز موضع فى البدن وأشرفه وقوله - سبحانه - « ليجزى الله كل نفس ما كسبت . . » متعلق بمحذوف ، والتقدير : فعل ما فعل - سبحانه - من إثابة المؤمنين ، ومعاقبة المجرمين ، ليجازى كل نفس بما تستحقه من خير أو شر ، دون أن يظلم ربك أحداً .

وقوله « إن الله سريع الحساب» أى: إنه - سبحانه - سريع المحاسبة لعباده، لأنه لا يشغله شأن عن شأن، بل جميع الخلق بالنسبة لقدرته كالنفس الواحدة.

---

(١) سورة الصافات الآية ٢٢ (٢) سورة مريم الآية ٦٨

قال ـ تعالى ـ « ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ... »[1] .

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بقوله ـ تعالى ـ « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب » .

واسم الإشارة « هذا » يعود إلى ما أنزله الله ـ تعالى ـ من قرآن فى هذه السورة وفى غيرها . و « بلاغ » مصدر بمعنى التبليغ .

والانذار : التخويف من سوء عاقبة ارتكاب الشرور والآثام .

والألباب : جمع لب وهو الخالص من كل شىء ، والمراد بها العقول .

أى : هذا القرآن الكريم الذى أنزلناه عليك يامحمد ، فيه التبليغ الكافى لهداية الناس ، وفيه مايخوفهم من سوء عاقبة الكفر والفسوق والعصيان، وفيه مايجعلهم يعلمون عن طريق توجيهاته وهداياته ودلائله، أن الله ـ تعالى ـ واحد لاشريك له ، وفيه مايجعل أصحاب العقول السليمة يتعظون ويعتبرون، فيترتب على ذلك سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

وخص ـ سبحانه ـ بالتذكر أولى الألباب ، لأنهم هم الذين ينتفعون بهداية القرآن الكريم ، أما غيرهم فهم كالأنعام بل هم أضل .

وقد رتب ـ سبحانه ـ فى هذه الآية الكريمة ، وسائل الدعوة إلى الحق ترتيبا عقليا حكيما ، فبدأ بالصفة العامة وهى التبليغ ، ثم ثنى بما يعقب ذلك من إنذار وتخويف ، ثم ثلث بما ينشأ عنهما من العلم بوحدانية الله ـ تعالى ـ ، ثم ختم بالثناء على أصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بما يسمعون وبما يبصرون .

قال الإمام الرازى : هذه الآية دالة على أنه لافضيلة للانسان ، ولامنقبة له ، إلا بسبب عقله ، لأنه ـ تعالى ـ بين أنه إنما أنزل هذه الكتب ، وإنما بعث الرسل ، لتذكير أولى الألباب ... »[2] .

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٨

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١٥٠

وبعد : فهذه سورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وهذا تفسير لها .

أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وأنس نفوسنا، وشفيعا لنا يوم نلقاه ـ تعالى ـ .

كما أسأله ـ عز وجل ـ أن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه الكريم ، ونافعة لعباده والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة : مساء الجمعة ٤ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٢ هـ
٢٩ من ينـــاير سنة ١٩٨٢ م

محمد سيد طنطاوى
رئيس شعبة التفسير ـ بالدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة

فهرس إجمالي لتفسير سورة إبراهيم

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٤٩	وترى المجرمين يومئذ	
٥٠	سرابيلهم من قطران	
٥١	ليجزى الله كل نفس	
٥٢	هذا بلاغ للناس	

رقم الإيداع ٤٠١٠١ / ١٩٨٤